﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾

دماء على الأيدي الناعمة

فؤاد شاكر

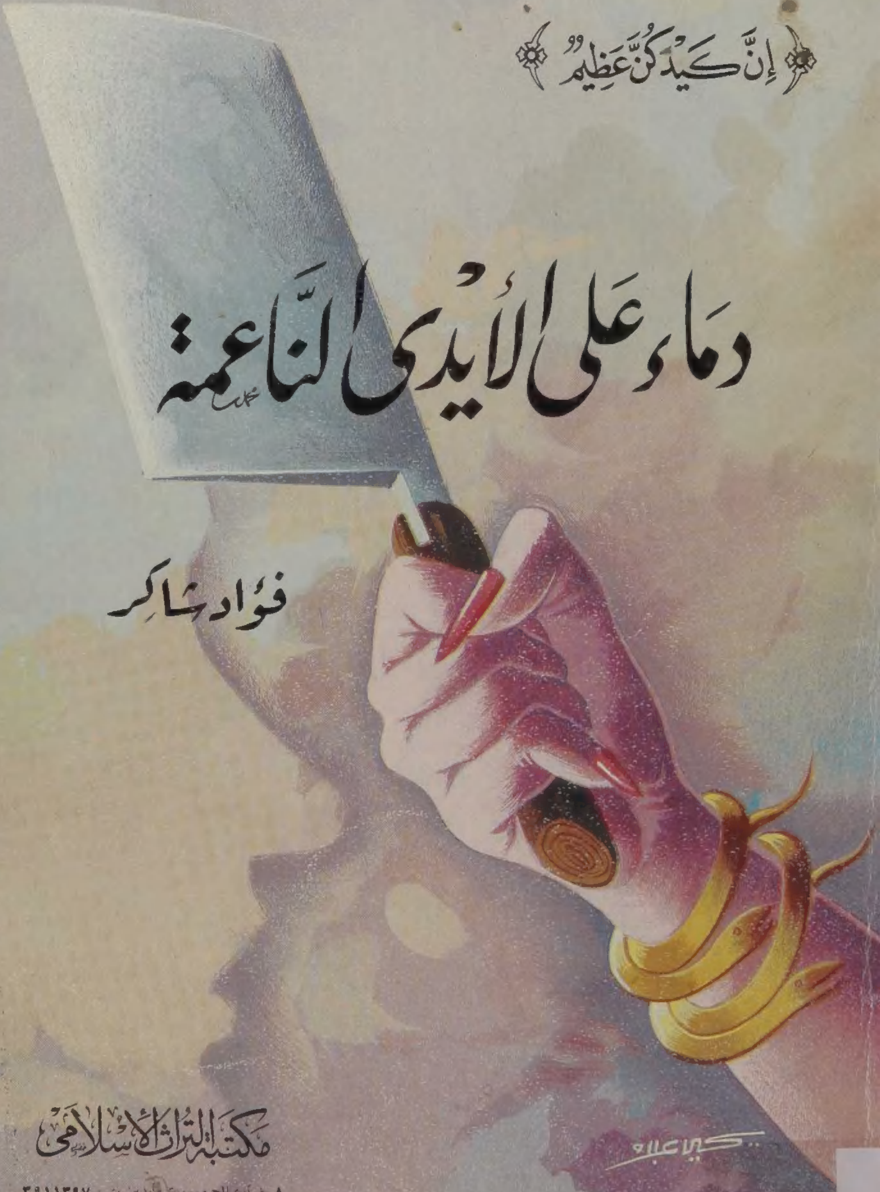

مكتبة التراث الإسلامي
٨ شارع الجمهورية عابدين ت : ٣٩١١٣٩٧

١٢

مركز المرأة للدراسات والاستشارات
ت : ٢٤٤٦٠٢٢
ت.ف: ٢٤٤٦٠٣٣
ترخيص رقم : (٧١)

﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾

٢١٠/٤
ش ف د

دماء على الأيدي الناعمة

فؤاد شاكر

مكتبة التراث الإسلامي
٨ شارع الجمهورية عابدين ت : ٣٩١١٣٩٧

حقوق الطبع والنشر محفوظة
للناشر

مكتبة التراث الإسلامي

٨ شارع الجمهورية عابدين القاهرة ت : ٣٩١١٣٩٧ فاكس : ٣٩١٣٤٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقــدمة الناشــر

الحمد لله رب العالمين الذى خلق المرأة من ضلع الرجل وجعلها له سكناً والصلاة والسلام على هادى الناس أجمعين سيدنا ونبينا محمد ﷺ القائل إستوصوا بالنساء خير

أما بعد فهذا الكتاب يصحبك فى رحلة شائقة ممتعة خلابة عبر عصور التاريخ ، حاشداً أمام مخيلتك نماذج شتى من حياة المرأة فى فتنتها وجاذبيتها وسحرها ودلالها وزينتها ورونقها حين كانت سلطانة القصر وملكة المنزل وسيدة المجتمع ومجلى الجمال فى الكون كله .. إذا سحرت ، وإذا نظرت بهرت ، وإذا تبسمت قهرت ، وإذا تنقلت أخذت القلوب والأبصار ، وسلبت العقول والأفكار ، وهزمت الجبابرة ، وأخضعت القياصرة .

كما يعرض الكتاب نماذج أخرى من حياة المرأة فى أسرها وعبوديتها وإنحسار إهتمام الرجال عنها ، ورقودها فى كهف النسيان ، وتجرعها من كأس الذل والهوان .. إذا ضحكت الدنيا من حولها تترقرق مآقيها بالدموع ، وإذا إزَّينت الأرض بوشى يد الربيع ، تجدها شاحبة كاسفة البال مسلوبة البهاء والرواء والنصوع ..

فالكتاب ثمرة فكر ناضج وثقافة يانعة عرفهما القراء فى الكتب السالفة للأستاذ فؤاد شاكر الذى إمتلأ فؤاده بالحب حتى زخر ، وأُترع ذهنه بالعبقرية والطموح حتى تألق وإزدهر .. فكل كتبه تتسم بميزتين ، وتتصف بخصيصتين :

الإغتراف من نهر الإلهام .. والبعد عن أى زيف يشين الأقلام .. فهو ذو قلم سابق محلق ، وذو فكر صادق متألق ، وذو أسلوب مهذب متأنق ..

تجده وهو يتحدث عن المرأة فى هذا الكتاب ، يحنو على ضعفها وأنوثتها ، حنوَّ البستانىّ على خمائله ، فهى نبع الحياة ، ومظلة الرحمة - وعبق الربيع ، وألق الضحى ، وسلسبيل الحب والحنان والرقة ، وقبلة ساجدة على شفاه الوجود ..

هذه الأنثى التى عانت من ظلم الرجل وقسوته ، إستمر عطاؤها متجردا ، وحين حاولت أن تذود عن نفسها الظلم ، لأنها لم تجد من يمد لها يد الإنصاف هب الرجال ليصفوها بما لم يصفوا به السفاحين ومصاصى الدماء .. وليس معنى هذا إننا نؤيد المرأة حين تمسك السلاح ، وتريق دم شريك حياتها ، وإنما نقول : إبحثوا عن الدوافع النفسية وراء هذا الجرم البشع .. ثم أحكموا بفطنتكم وعقولكم ، وقولوا : من الظالم ومن المظلوم !!

إن المؤلف بأسلوب هادىء عميق ، لاينصِّب نفسه قاضياً - ولا يقدم نفسه شاهداً ، وإنما يعرض تاريخ المرأة بمناقبه ومثالبه - بإيجابياته وسلبياته ، بالرؤى الحالمة فيه - وبالواقع الجاف المرير .. بالتشريعات التى رفعت المرأة إلى ذرى الحب والإجلال ، وبالقوانين التى ألقت بالمرأة فى حضيض الهوان والخبال ..

كل هذا أزجاه المؤلف بفطنة الحكيم وتأمل الباحث ورؤية المفكر وعدالة المنصف ، مستهدياً بالثقافة الإسلامية والعالمية ، جامعاً بين ما يقوله فقهاؤنا وعلماؤنا ، وما يقوله الغربيون عن المرأة .. مستهدف إبراز الحقائق المجردة ، مقدماً صورة متناسقة الألوان والظلال - واضحة الملامح والسمات عن العلاقة بين الرجل والمرأة ، سواء فى البادية أو فى الحضر ، وسواء فى ظل التشريعات السماوية ، أو القوانين الوضعية ..

وفى طرافة وسلاسة أومأ المؤلف إلى أن المرأة التى كانت ومازالت تصرع برموش عينيها الرجال ، أصبحت تصرعهم بالشاطور .. إذن فهى قاتلة بجمالها، وقاتلة بيدها.. ولكن شتان بين القتلتين: قتلة الفتنة، وقتلة

السلاح .. فالرجل هو الضحية فى كلتا الحالتين–ولكن صرعى الرموش يتمنَّون أن يقُتلوا كل يوم ألف مرة .. أما صرعى الشاطور فإنهم الآن بين يدى التاريخ .. ولاشك أن هذا الكتاب من الكتب القلائل النادرة ، لأن مؤلفه تصدى لقضية من أخطر قضايا العصر ، إستحواذاً على ألباب ومشاعر الناس ، إذ من الغريب حقاً أن تكون اليد الناعمة التى تكشف عن لون براق من ألوان الأنوثة ، هى التى تمسك بالسلاح لتقتل الرجل الذى حمى صاحبتها من أى عدوان عليها ، وفداها بالنفس والنفيس !!

وإذا كانت هذه القضية أثارت إهتمام الناس ، فلأنها قضية كل بيت ، كل زوجين ، كل ذكر وأنثى .. قضية الحب الذى يذبل ، والمودة التى تتلاشى ، والرحمة التى تنضب .. قضية العلاقات الحميمة التى تتحول إلى علاقات بغيضة ، قضية الأسرة التى ينطفىء مصباحها ، وينسحب عليها ظلام داكن وسكون مخيف .. قضيتى أنا وأنت وكل من يقرأ هذا الكتاب .

فافتح ياعزيزى القارىء هذا الكتاب واقرأه كلمة كلمه – تتجسد أمامك المعانى ، وتمسّ وجدانك مسًا رقيقاً آنا ، ومسًا عنيفاً آنا آخر ، مسّا بشوشا فكها حيناً ، ومسّاً عبوساً جَهْماً حيناً آخر ..

إنك فى عصر كل شىء عجيب فيه إذا قورن بالعصور السالفة .. حتى بيتك الذى تعيش فيه ، وحتى زوجتك التى تأنس إليها ، وحتى أولادك الذين تحنو عليهم .. كل هؤلاء جزء من كيان العصر ، إذا لم تحمهم بالحب ، بالحنان ، بالرقة ، بالرحمة ، بالعطف ، بالإيثار ، فروا من حقلك الخصيب ، ونفروا من عالمك المريب .. فالبحث عن لقمة العيش قد يلهيك ، ولكن الحب عن كل متاع الدنيا يغنيك »

فأشرب من كأس الحب العفيف الطاهر حتى الثمالة ، واسق مَن حولك من هذه الكأس ، لتجعل الحياة بسمة على كل الشفاه ، وبهجة فى كل القلوب ، وكلمة حلوة صافية على كل الألسن ..

إنه الحب .. شفاؤنا من كل أمراض العصر .. وما أكثر الأمراض التى نطلب منها الشفاء .

وصلى الله على سيدنا محمد القائل خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى ، وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

القاهرة - عابدين ٧ صفر ١٤١٠ من الهجرة
٧ سبتمبر ١٩٨٩ من الميلاد

عبد الله حجاج

بسم الله الرحمن الرحيم

« باسم الله الذى لا يَضُرُّ مع اسمه شئ فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم » .

هذا دعاء مأثور مشهور ، يردده المؤمن فى الضراء وعند البلاء ..

فمـاذا بعـد ؟ ...

الزوجات قاتـلات ولسْنَ مقاتـلات ..

فلئن تقاتل الزوجة إحياء للفضائل ، وحفاظاً على الشرف ، وحماية للأسرة ، وإبقاء على مجد الأمة .. أن تقاتل الزوجة جحافل الشر والقهر والتخلف والجهل .. أن تقاتل الزوجة لدفع عدوان الهوان ، وطوفان الإعلان ، وهلاك الاستهلاك ، وشراك الاسترقاق .. فكل ذلك مطلوب ومرغوب محبوب .. أما أن تقتل الزوجة عامدة زوجها : رب الأسرة ، ورفيق الرحلة ، وعضد الأبناء ، وشريك الحياة ، وتقطعه إرباً إرباً .. فهذا أمر يلفت النظر ، ويستلزم التأمل ، ويستحث أولى الفكر والعزم ، والإعلام والتربية .. كل فى موقعه وعلى قدر فهمه وجهده وأمانته ومسئوليته .. فيما يملك ، وبما يستطيع .

قد يقال : تلك حوادث فردية تضخمها الصحف ، وتثرثر بها المجالس غير الجادة « لقتل » الوقت والتسلية ، وهى لم تأخذ شكل الظاهرة الاجتماعية الشائعة أو الغالبة ..

وقد يقال : ومتى كانت الجريمة معدومة ، وقتل الناس – مادياً ومعنوياً – معطلا مجهولا ؟ إنه أمر ملازم للإنسان من قبل أن يوجد

على الأرض إنسان : ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة. قالوا : أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء**﴾..؟

وقد يقال : إن الناس يتكاثرون ، ويتضخمون ، ويتضاغطون ، فيتشابكون ويتعاركون ويقتتلون . فلو قل العدد ، وانكمش إنجاب الولد ، وانتظمت الأسرة ، وتصاغرت الكثرة .. أراح الناس واستراحوا . فخفَّت أحمال الأب ، وهدأت ثورات الأم ، وابتسم الكل واجتمع الشمل ..

وقد يقال لك : تباً للرجال ، فى عصر تبدَّلت فيه الأحوال ! أين الرجل الذى كان يزأر زئير الأسد ، ويغضب فتتقطع الأنفاس وتخمد ، ويفعل فى بيته أفعال « سى السيد »؟! .

وقد يقال لك : بل تعسا لبعض الأزواج ، وقد غلب على شخوصهم ازدواج .. فعموا وصموا ، وتراخوا فى انبعاج .. هو يريد وزوجه لاتريد .. هو يحب ماتكره ، وهى تعشق مايُنكر .. هو يغفل عما تشتهى ، وهى تؤرقه بما لاينبغى .. هو مستغرق فى واد ، وهى منطلقة إلى واد ، ويالضيعة البيت والأولاد !..

وقد يقال لك : هذه نتيجة لعيوب فى المجتمع ، بل مقدمة لما هو أشد وأبشع : كعلامات لقصور فى التنشئة والتربية ، وخلل فى التقدير والفهم . وقد تكون عرضا لأمراض ظاهرة أو مستخفية ، تنتقل عدواها حين يعجز البعض عن تحقيق التطلعات التى يضخمها بريق الإعلانات ، أو حين ييأس البعض من توفير الضروريات ..

قد يقال ويقال .. وتضيف إليه بخبرتك ورأيك ما تشاء .. أو تفنِّدين منه مالا يوافق مزاجكِ وطبعكِ وهواك .. وربما كل ذلك

صحيح .. أو مقبول .. وجائز .. قد نتفق فيه أو عليه – فى الرأى والتقدير – نختلف . إلا أن التباين واختلاف النظرة والحكم ، لايستوجب أبداً خصومة، ولا يستلزم حتما عداء ، ولا يجدر أن يجر إلى قطيعه تفضى إلى « القتل » .. أو محاولة إراقة الدم !

فلكل مشاركة ، ومسئولية ، واجتهاد .. ﴿**ولكلٍّ وِجْهة هو مُوَلِّيها ، فاستَبِقُوا الخيراتِ**﴾ .

وعلى الله التُّكْلان ...

القاهرة المحرم ١٤١٠هـ
اغسطس ١٩٨٩م

فؤاد شاكر

السيدة .. أم السيد ؟!

هل تحب أن تشاهد مطلع الفجر ؟

يقال بحق : « البركة فى البكور » .. وإشراقة الصُّبح الوضاءة المتوضئة تحمل معها كثيراً من نفحات الخير ، وسَبَحات الحب ، ولمحات الجمال ..

هيا إذن نطل على « فجر » الإنسانية والإنسان .. قبل أن نسأل : لماذا تقتل بعض الزوجات الأزواج نفسياً أو جسدياً ؟ ولم يذبح بعض الأزواج الزوجات مادياً ومعنوياً ؟ لماذا تسيل الدموع والدماء بدلا من تدفق تيار المشاعر الطيبة الودودة السمحة ؟ !

لأحد يعرف على وجه اليقين متى بدأت المرأة تسلم قيادها للرجل .. فمنذ نحو اثنى عشر ألف عام ، كانت العلاقة بين الرجل والمرأة قائمة على قدم المساواة الكاملة ، فى الأنشطة والمهارات والنظر إلى الأمور وتحقيق الرغبات والاحتياجات . كان تأثيرها فى البيئة أو العالم من حولهما ضيقا محدوداً ، لايزيد على تأثير السباع والذئاب والثعالب التى تجاورهما أو تهددهما على الدوام .

كان لديهما العقل للتبصر والتفكير والتأمل ، لاختزان الخبرات .. فى ذلك الوقت فقط ، بدأ العقل ينشط ، والفكر يتطور . فصنعا –

معا – الأدوات البسيطة ، والملابس البسيطة ، والمسكن البسيط . وفى مرحلة تالية ، اكتشفا فى داخلهما القدرة على تسجيل وصياغة الصور والأشكال : فرسما معا ، وصنعا التماثيل الحجرية البدائية ، وتعلما – معا – طهى الطعام .

لكنهما ظلا معا فى خضوع كامل لسلطان البيئة ، لا يكاد يشغلهما أو يثير تطلعاتهما سوى الحصول على الطعام ، من مورد ثابت لا يتطلب المخاطرة فى كل وجبة أو مصارعة الحيوان .

كانت « الثورة » الكبرى فى حياتهما الاجتماعية ، يوم أن عرفا كيف يزرعان الحب ، ويتعهدان النَّبت ، ويجمعان المحصول ، ويختزنان منه قدراً لمستقبل الأيام . من هنا فقط ، بدأ كل شىء على وجه الأرض يتغير . ومن هنا أيضاً ، بدأ الإنسان – المرأة والرجل – يدرك معنى الغد ، والإعداد للغد ، والتملك للغد . ومن «المِلكية» والسيطرة ، نبَتت بذور الأزمات والمشكلات . وفى رأى بعض الباحثين والعلماء ، أن المرأة كانت أسبق من الرجل فى اكتشاف الزراعة ، ومراقبتها المتتابعة لنمو النبات .

حدث هذا فى مناطق متفرقة من العالم المسكون حينذاك : فى جنوب شرق أسيا وشرق أفريقيا منذ عشرة آلاف سنة بالتقريب ، وفى الشرق الأوسط (بمفهوم اليوم) منذ نحو تسعة آلاف سنة ، وفى

المكسيك منذ نحو ثمانية آلاف ، وفى شمال أوربا منذ ستة آلاف ، وبعدها بألف عام تقريباً فى الجزر البريطانية .

وتكاثر الناس « عدداً واستعداداً وعدة . وفرضت الزراعة حياة الاستقرار والارتباط بالأرض والمكان . ثم فى مرحلة أخرى من التطور ، تعلم الإنسان الكتابة ، والحساب ، وتقسيم الأيام والشهور ، واشتراع القوانين ، وتسجيلها على ألواح الصلصال والطين ، وفرْض وتحصيل الضرائب والمكوس .

لقد « تمدن » الإنسان ، وبدأ يدخل فى أطوار الحضارة ، وهى تنمو ببطء فى علاقة متبادلة ومتشابكة مع الزمن ، والبيئة ، والمناخ ، والعقل .

. حول الحقول المحدودة ، بدأت تظهر القرى البسيطة الصغيرة . ولما زادت القرى وانتشرت ، اتسعت الحقول وامتدت . وكان أخطر ماترتب على ذلك : تخزين المحاصيل ، وتبادلها مع غيرها من المنافع ، بالبيع والشراء (بالمقايضة) ، ثم الانتقال .

ثم بدأ التباعد « الفكرى » بين المرأة والرجل . لالنقص فى ملكاتها أو قدراتها الذهنية كما قد يظن البعض ، ولا بسبب تفوق للرجل عليها فى التكوين ، وإنما هكذا فرضت الظروف .. وفى مفتتح سورة « النساء » فى القرآن الكريم : ﴿ **يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ..** ﴾ وفى سورة الأعراف : ﴿ **هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها** ﴾ .

فى ذلك الفجر البعيد للإنسانية .. منذ نحو عشرة آلاف سنة ، كانت المرأة مشغولة طوال نهارها بالعمل : تزرع المساحة المحدودة من

الأرض بجوارها ، وتتعهد النبات ، وتجمع فروع الأشجار لاشعال النار سواء للتدفئة ، أو الطهى ، أو لإخافة الحيوان المفترس . كانت مشغولة فى فترة الحمل ، وبعد الحمل فى رعاية الأبناء ، وفى وقت المحصول : تجمع ، وتقشر ، وتخزن الحبوب . أما مشاغل الرجل اليومية ، فكانت محدودة ، فهو إن أمضى ساعة من نهار فى صيد حيوان للأكل ، جلس بعدها فى انتظار وترقب حتى ينضج الطعام ويأكل ، وهو إن شارك امرأته فى الزراعة ، لايداوم على هذا العمل الذى تكفلت هى به . ولئن أقام من فروع الأشجار مأوى للسكن ، فهو يمكث فيه فترة من الزمن تطول أو تقصر ، إلى أن ينتقل لمكان آخر .. فكان لديه إذن متسع من الوقت للتأمل ، وللتفكير المجرد عن العمل اليومى المحدود . وشيئاً فشيئاً بدأت تتوارد على ذهنه «أحلام» اليقظة » و« الأفكار » الجديدة ، وأن يقيم بينها علاقات ، ويربطها بواقعه ومحيطه .. فيبتكر ويتخيل الأدوات التى يحتاج إليها لتجعل حياته أكثر سهولة وراحة وأمنا ثم يصنعها .. ومن هنا بدأت تتجمع خيوط الحضارة .. وان كان البعض يسميها « بدائية » ..

ولانستطيع نحن الآن أن نتصور « دهشة » الرجل والمرأة معا حين أتيح لهما « التفكير » فى الحقائق البيولوجية بمعنى : كيف تتكون الحياة ؟ ولماذا يولد الأطفال ؟ كانت ثورة حقيقية فى التفكير ، وقد بدآ يستأنسان صغار الحيوان ، ويتأملان النمو ، ويشاهدان الزواج والميلاد .

كانا يجهلان تماماً طبيعة العوامل الحيوية التى تؤدى إلى الإنجاب . بل إنه فى عام ١٩٣٠ (من هذا القرن الذى نعيش فيه) اكتشف جماعة من الباحثين الذين زاروا جزر سلومون (بالمحيط الهادى شرق

اندونيسيا) أن الأهالى هناك يظنون أن الأطفال يولدون لأن أجدادهم الأقدمين الذين ماتوا وتحولوا إلى آلهة تجوب السماء ، ينفخون فى الرياح التى تهب على الجزر ، حين يريدون لأحفادهم الإنجاب ، فتتنفس الأمهات الهواء وما يحمل من رسالة الأجداد ، فيحملن ويُنْجبن ! أما علاقة المرأة بالرجل فهى لمجرد المتعة فقط ! وفى عام ١٩٦٠ ، اكتشفت مجموعة أخرى من العلماء الذى تسللوا إلى نهر « توللى » فى شمال « كوينزلاند » باستراليا أن سكان المنطقة يعتقدون أن المرأة لاتحمل إلا إذا جلست فوق موضع توقد فيه النيران لشواء السمك الذى يقدمه إليها زوجها . ومازالت بعض القبائل البدائية فى أستراليا تؤمن بأن المرأة لاتُنجب إلا إذا أكلت لحماً بشريا ! ولانعجب نحن الآن من « بدائية » هذا التفكير الذى يتصل عبر الزمن بينابيع التصورات المشوشة القديمة . فقد نشرت إحدى المجلات النسائية البريطانية عام ١٩٧٧ (أى منذ سنوات معدودات) رسالة من فتاة إنجليزية إلى محررة باب المشكلات ، تقول فيها إنها سبق وأن ارتبطت بفتى أسود أنجبت منه طفلا أسود ، ثم انفصلا وهى الآن على وشك الزواج من رجل أبيض ، لكنها تخشى الإنجاب وتسأل : « هل مازال دم الفتى الأسود فى جوفها بحيث ستظل تنجب أطفالاً سوداً » ؟ !

لعل أكبر « اكتشاف » حضارى للإنسان القديم (رجلا أو امرأة) الذى بدأ يفكر ويفكر منذ نحو عشرة آلاف سنة ، هو توصله إلى صياغة هذا السؤال : « لماذا؟ » .

ربما نضحك نحن الآن ، بل نسخر ممن يتوقف طويلا أمام هذه الكلمة أو هذا السؤال : لماذا ؟ . فأى طفل يبدأ فى تعلم بعض

الكلمات المعدودات ، لابد وأن يكون من بينها هذه الكلمة وهذا السؤال ، يردده ليل نهار . لكن هذه الكلمة ذاتها ، وهذا السؤال نفسه ، بايقاعه فى النفس ووقعه فى الذهن ، كان البداية الحقيقية لحضارة الانسان البدائى – الرجل والمرأة – ومنه تفتحت آفاق المعرفة التى لاحدود لها ، ولن تحد . وربما كان هذا السؤال ـ لماذا ؟ـ هو الذى فصل إلى الأبد مجال فكر الانسان عن فكر الحيوان : فظل الحيوان بتصوراته ومفاهيمه – إن وجدت – حيوانا ، وانطلق الإنسان « بلماذا ؟» يترقى ويسمو ويكتشف ويتعلم ، ويصوغ حياته على نحو مانعرف .. أو مالا نعرف !

لماذا يولد ؟ لماذا يعيش ؟ لماذ يموت ؟ لماذا يأكل ؟ لماذا يشرب ؟ لماذا يملك ؟ لماذا لايملك ؟ لماذا يحب ؟ لماذا يكره ؟ لماذا يتزوج ؟ لماذا لايتزوج ؟ لماذا ينجب ؟ لماذا يتحمل ؟ لماذا يصبر ؟ لماذا يُقَبِّل ؟ لماذا يرفض ؟ لماذا يطيع ؟ لماذا لايتمرد ؟ لماذا لايحدث ؟ لماذا يَضرب ؟ لماذا يُضرب ؟ لماذا لايقتل ؟..

امتزج التأمل ، بالنظرة ، بالسؤال : لماذا ؟، فخرجت الفكرة ، تتبعها أفكار وصياغات ، ومعادلات ، وقوانين ، وتطبيقات ، فى كل مجالات العلم ، والمعرفة ، والنظم ، وشئون الحياة ..

ثم كان السؤال : لماذا سيطر الرجل ؟

لأحد حتى الآن يعرف بالتحديد ، متى بدأ الانسان القديم يتأكد من أن المرأة ليست وحدها المسئولة عن الإنجاب أو المنشئة له . لكن المرجح نظريا ، أن المرأة بإنجابها المتكرر ، وتزايد مشاغلها داخل البيت أو الكوخ ، دفع الرجل إلى الاضطلاع بمعظم العمل خارج البيت ،

سواء فى الزراعة وقد اتسعت مساحتها، أو فى تسخير الحيوان بعد استئناسه وتربيته بأعداد متزايدة ، بالإضافة إلى واجباته فى حماية « الأسرة » .. أسرته هو ، وما يتفرع منها . وظهر جليا أنه فى هذه الأعمال ، أكفأ من المرأة وأقوى وأكثر تحملا .

ومن حصيلة تفكيره وخبراته ، أصبح أكثر مَيْلا إلى التجربة ، والمحاولة ، والابتكار ، وتصحيح الأخطاء والفشل فى التطبيق والصنعة . وكلما حقق نجاحا - ولو ضئيلا - شعر بالثقة ، والزهو ، ولم تكتم امرأته أيضاً شعورها نحوه بالتقدير والإعجاب .

فى نفس الوقت ، كانت « مجتمعات » الرعاة باقية سائدة . وحياة هؤلاء ترتكز أساساً على الانتقال الدائم ، من فصل فى السنة إلى فصل ، حول السهول الفسيحة الغنية بالأعشاب . وسواء أكان هؤلاء الرعاة من سلالة الأجداد الذين كانوا يعتمدون فى معيشتهم كلية على الصيد ، أو كانوا من أبناء أولئك الذين مارسوا الزراعة واستقروا بجوارها ، لكنهم فشلوا فى الاستمرار فيها ، فإن حياة الرعاة وأسلوب معيشتهم ، تفرض أن تكون السيادة للرجل ، ولم تكن قيمة المرأة عند أحدهم أكبر من قيمة الحيوان الذى يملكه أو الشيء الذى يقتنيه . ويرى بعض علماء الاجتماع اليوم أنه ليست مصادفة أن المجتمعات الغربية المعاصرة التى مازالت تعطى أهمية أكثر للرجل وتدعم نفوذه فيها ، لم تصنع هذا من فراغ ، وإنما هو امتداد لفكر المجتمع الرعوى القديم وطبيعته وسماته ، والتى مازال الغرب يحمل جذورها منذ عصر الرعاة الهندو أوربيين .

حين دخلت البشرية فى مرحلة تدوين التاريخ (نقشا أو رسما أو

كتابة). كانت السيادة الغالبة فى معظم المجتمعات للرجل . وقلة قليلة من النساء هى التى حفظتها ذاكرة التاريخ أو التى اهتمت بتسجيل أعمالها الآثار . ففى الأسرة المصرية القديمة الأولى مثلا – ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد – نجد « ميرييت – نيت » ملكة تحكم بأسلوب سياسي متميز ، أدّى بعدها إلى توحيد الجنوب مع الشمال . ثم جاءت بعدها « حتشبسوت » ، أرملة تحكم باقتدار أكثر من عشرين سنة (من عام ١٥٠٥ ق.م) وتوسع من تجارة مصر مع جيرانها . ولأسباب سياسية ، صوّرها الفنانون القدماء فى زى الرجال ، وفى وقوفها على هيئة الرجال ، بل أضافوا إلى صورتها الذقن الملكية الشهيرة ! ثم تتابعت أسماء مثل : « تيى » ، « نفرتيتى »، « بيرينيك » ، « كليوباترة » .. حكمن وأصلحن وأفسدن « كما يفعل الرجال سواء بسواء !

وفى نفس الوقت ، كانت ملكات أخريات فى الشرق ، يَمْلكن ويَحْكمن ، منهن « سميراميس » فى مملكة آشور ، الذى وصفها المؤرخ القديم المشهور « هيرودوت » بأنها : « الأكثر جمالا ، والأكثر قسوة ، والأكثر سطوة ، والأكثر نشاطا بين كل ملكات الشرق » .

كان القانون المصرى الفرعونى يسوى بين الرجل والمرأة ، مما سمح للمرأة أن تخرج من بينها وتتحرك فى سهولة ويسر ، وهذا أدهش الأغريق (اليونانيون القدماء) واعتبروه « عارا وفضيحة » . لكن استقلال المرأة الحقيقى – كما فى معظم المجتمعات المعاصرة – جاء من باب المال . والمال وقتها لم يكن مصدره عادة إلا الميراث ، أو أقدم المهن النسائية : الرقص والموسيقى وإغواء الرجال . وفيما عدا ذلك ، فهى إما زوجة ، وإما من الرقيق . وهى كزوجة ، تعتمد فى حياتها

تماماً على زوجها ، سواء كانت ثرية أو فقيرة . فإذا ماارتكب الزوج جريمة ، كان القانون يعاقبها هى أيضاً وكذلك أولادها ، وينزلهم عادة إلى طبقة الأرقاء .

المرأة الصالحة .. أين يجدها المرء ؟

وكتاب الحكمة المصرى القديم يطرح هذا السؤال :

«المرأة الصالحة : أين يجدها المرء ؟ ». ومفهوم « المرأة الصالحة » وقتها كان يعنى : تلك التى تحسن غزل الصوف والكتابه ، وتجيد طهو الطعام ، وتصحو من نومها قبل الفجر لكى تبدأ فى إعداد متطلبات الأسرة ، وتراقب أعمال الخدم ، وتشرف على العمل فى الحقل ، وتزرع بيديها الكروم وتقطف العنب ، وتسجل حسابات الإنفاق ، ولاتأوى إلى فراشها إلا فى جوف الليل . أى أنها تظل تكد وتتحرك وتكدح طوال النهار وجانبا من الليل ، ويدخل فى ذلك حياكة الملابس لها ولزوجها وأولادها ، ورعاية المريض ، وبيع الفائض من الملابس فى السوق ، ثم عليها قبل ذلك وبعده ، واجب التفكير والإعداد للمستقبل ، بتفاؤل وانتعاش ، وأن تتذرع بالصبر ، والحكمة ، وحسن الإدراك ، والتنظيم ، ولا تتذمر أو تتبرم ، أو تشكو من فراغ . وبالله .. أين ومتى يكون الفراغ !! ومع ذلك ، كان من حقها أن تطلب الطلاق . وكان العقم من أكبر الأسباب التى تيسر للزوج أن يطلق زوجته .

كان تعدد الزوجات شائعا فى مصر القديمة حتى الألف الثالثة قبل الميلاد . ثم تراجع بالتدريج بسبب الظروف الاقتصادية ومستوى دخل الرجل ، إلا أن هذا لم ينسحب على الملوك الفراعنة .

وبشكل عام ، كانت المرأة بالنسبة لزوجها فى المقام الأول : أم الأبناء ، ومدبّرة البيت ، فى مرتبة تعلو مرتبة الخدم ، مادامت تؤدى واجباتها بكفاءة وصبر . فإذا ما ضجرت أو قصرت أو عجزت ، كان للزوج أن يطردها ، أو يمنحها بعض المال لتعيش فى معزل . إلا إذا حالفها الحظ وكان يحبها ويحمل لها قدرا من الإعزاز والتقدير ، فحينئذ يحتفظ بها ويُكْرم مثواها ، ويسمح لها أن ترثه . فأموال الرجل وممتلكاته كانت تؤول بالميراث إلى الأبناء . وقد ذكر « أنى » الحكيم فى برديته الشهيرة تلك النصيحة : « اقترن بزوجة عندما تكون شابا يانعا . فهى سوف تجلب طفلك إلى هذا العالم . دعها تنجب لك وأنت مازلت صغير السن . إذ من الحكمة أن يكون لك أبناء . سعيد ذلك الرجل الذى لديه أسرة كبيرة العدد » .

ثم أقبل الإغريق بحضارتهم التى ارتكزت عليها الحضارة الأوربية المعاصرة واستمدت منها – مع الحضارة الرومانية بعدها – كثيراً من الأفكار والمفاهيم .

« المرأة – بكل المقاييس – أدنى منزلة وأقل شأنا من الرجل » هكذا قال لهم سقراط . ثم أراد أن يخفف من قسوة الحكم عليها فأضاف : « إن كل ماينقصها قليل من قوة البنْية ، ومزيد من حدة الذهن وصواب الرأى » .

فى مجتمع الإغريق، كانت المرأة تعامل بجفاف وغلظة . لم تكن لها حقوق سياسية أو قانونية أكثر من الرقيق . فتظل طوال عمرها تحت السيطرة المطلقة للرجل . الزوج أو من يملك القياد فى الأسرة أو الأهل . لا تتلقى أى تعليم رسمى ، وتقضى معظم وقتها مع نساء البيت

إلى أن تتزوج . فإذا ماتزوجت ، فهى نادرا ماتجلس مع زوجها على مائدة العشاء ، ومحظور عليها أن تستقبل ضيوفه . وإذا سمح لها أن تخرج من البيت ، وقليلا مايفعل ، فلابد أن يصحبها جارية أو وصيفة واحدة على الأقل . فإذا ماكان خروجها بالليل ، فلابد أن يكون فى عربة مضاءة بقنديل .

ليس لها أن تتصل بأحد من الرجال غير زوجها أو أولى القربى من الذكور . ويحدثنا المؤرخ « بلوتارك » عن الحاكم « هييرو » الذى أشاع خصم عنيد له أنه أبْخَر (أى رائحة فمه كريهة) . فلما بلغ ذلك « هييرو » سأل زوجته : أحقا مايقال ؟ ولماذا لم تخبره ؟ فكان جوابها بسذاجة : « حسبتُ أن كل الرجال هكذا » !

كان فى مقدور الرجل الإغريقى أن يطلق زوجته أو يطردها من بيته أو يتبرأ منها فى أى وقت يشاء ودون اللجوء إلى القضاء وبلا أدنى لوم . بل إن القانون كان يلزمه أن يفعل ذلك إذا مااستطاعت هى بطريقة خارقة للعادة أن تتوصل إلى فعل الخيانة الزوجية . وكان لها أن تحصل على الطلاق ، ولكن فى حالات نادرة ، وبمشقة بالغة ، على ألا يكون مطلبها هذا متعلقاً بخيانة الزوج أو لشذوذه الجنسى . (وبالمناسبة : ظل الرجل « يستمتع » بحق ممارسة العلاقات النسائية خارج بيت الأسرة إلى عصرنا حتى ، حتى أفلحت سيدة بريطانية عام ١٩٢٣ فى الحصول على الطلاق لهذا السبب) . ويكفى أن تشير ، إلى أن كلمة «امرأة» عند الإغريق كانت تعنى لغويا «حاملة الأولاد» *(gyne)*

ومع الأيام ، تطورت نظرة الرجل الإغريقى إلى المرأة ، فزاد

تباعداً واستعلاء ، حتى استقر فى أذهان الجميع منذ القرن الثالث قبل الميلاد » أن « كل » النسوة بلا استثناء غير عاقلات ، مفرطات فى الشهوة ، متخلفات معنويا ووجدانيا . ولئن صح هذا الزعم ، فمن الانصاف أن يُرد على هذه الثلاث ، بأن المرأة كانت محرومة من التعليم المنهجى المنتظم ، وأن الرجال كانوا منغمسين فى حياة اللهو العابثة التى يغشاها الغانيات والغلمان ، كما أن كثيراً من الرجال كان يقضى الساعات الطوال فى حلقات الفلسفة ومجالس الحكم . فكانت النتيجة : أن الانسجام أو التوافق العائلى ، لم يكن من السمات البارزة لهذا المجتمع .

ومن الدلالات التى تعنينا هنا ، أن الشخصيات الشهيرة فى المآسى « التراجيديات » المسرحيات اليونانية القديمة، كانت فى معظمها من النساء . فمثلا : « كليتمنسترا » تذبح زوجها . و « ميديا » تقطع جسد أخيها إرباً إرباً ثم تنتهى بأن تقتل أبناءها واحداً واحداً . و « فيدرا » تحنث فى القَسَم ثم تنتحر . و « الكترا » تتآمر وتشترك فى قتل أمها ! حتى الآلهة عندهم أمرها عجيب : « فأفروديت » جميلة ، جذابة ، فاتنة ، لكنها بغىّ ! ومثلها « هيلين » إلهة طروادة .

هل من الضرورة حقاً أن نتزوج ؟

وباختصار شديد ، يلخص الصورة الشاعر الريفى « هيزيود »، الذى كان له تأثير كبير على الإغريقيين من القرن الثامن قبل الميلاد ، فيقول : « **هل من الضرورة حقاً أن نتزوج؟** » ان الذى يفلح فى تجنب الزواج ، وفى تحاشى المآسى التى تجلبها إليه الزوجة ، سوف يندم فيما بعد على شيء واحد .. عندما يمتد به العمر ويشيخ ، ويفتقد العون من الأبناء ». ثم يضيف مخففا فى دهاء من قسوة الحكم على النساء : «لكن الذى قدر عليه أن يتزوج ، ربما صادف قسطا من السعادة والراحة والأمن فى صحبة زوجة عطوف. لكنه فى النهاية سوف يجد أن ماأصابه من البلايا والرذائل يفوق مانعم به من متعة » . ثم ينصح الشباب : « إن أفضل السبل أن تشترى جارية . ولاتتزوجها . وبهذا تضمن أن تتبعك صاغرة ولو وراء محراثك » !

ثم أقبل الرومان ، وهم من سلالة الرعاة ، وقد تأثروا كثيراً بحضارة الإغريق وقرطاجة ، وتأصلت فيهم صفات الأجداد ومن أبرزها : الأداء الأمين للواجبات ، والحزم ، والنظام ، والمثابرة ، والشفقة ، والاقتصاد فى الإنفاق، وتحمل المسئولية . وغلب على حياتهم الاجتماعية أمر على جانب كبير من الأهمية : حماية مطلقة لما يملكه المرء خاصة : الأرض ، والأسرة .

حتى نهاية القرن الأول قبل الميلاد ، كان من حق الزوج قانوناً أن يقتل زوجته فى الحال إذا ضبطها فى موقف ينال من شرفه . وكانت الزوجة تعاقب عقابا صارما – قد يُفضى إلى الموت – إن هى شربت

مقدارا من النبيذ أكثر مما هو مسموح لها به ، أو إذا سلكت مسلكا فيه خلاعة ، وقد يُطلَّق من أجل ذلك ، كما تطلق بسبب العُقم . وكما كان الأمر شائعا فى أرجاء العالم القديم ، كانت المرأة ومعها الأبناء من ممتلكات الرجل الخاصة ، مع فارق واحد فى روما : وهو أن واجب المرأة ينحصر فى الإنجاب ، وفى رعاية شئون البيت . ومع ذلك ، فقد كانت أقل عزلة عن المجتمع بالنسبة لغيرها من النساء فى الدول المجاورة ، كما كانت أكثر إدراكا لقدراتها ومواهبها الذاتية ، مما أكسبها مزيداً من الاطمئنان والثقة .

وعند كثير من النساء ، كان هذا يكفى . وليس من شك ، فى أن كثيرات من النساء ـ فى الإمبراطورية الرومانية ـ وربما الغالبية منهن وكما هو عند العديد من نساء الغرب اليوم ، تنازلن راغبات عن قدر من حريتهن الذاتية ، مقابل الرفاهية الفكرية والاستمتاع العاطفى . ومن أجل ذلك ، كانت الحماية وصيانة الأسرة – رغم ضغوطها القاسية والخشنة أحياناً – أعز مطلبا وأشهى مذاقا عند الكثيرات منهن من لذة اقتناص الحرية . وحتى النساء اللاتى كن عازفات عن التحرر من إسار السيطرة والرق ، كن على يقين من أن حياتهن يمكن أن تصبح رغيدة هانئة

أنواع الزواج الرومانى قديماً

كان الزواج واحداً من ثلاثة :

أولها : قريب الشبه بالزواج الكاثوليكى المعاصر . إلا أنه كان من الميسور التحلل منه ، وكان يتطلب طقوساً وحفلات كثيرة باهظة . والثانى:أقل فى الترتيبات والانفاق ، وهو أشبه بالزواج المدنى فى بعض الدول اليوم . فتنتقل الفتاة أو المرأة « من يد إلى يد » حسب التعبير القانونى الرومانى ، أى من يد الأب – أو أسرتها – إلى يد زوجها مباشرة وسيطرته ، وتنتقل معها ثروتها (إن كانت تملك) وكذلك بائنتها (المهر) ، وتصبح هى وماتملك من ممتلكات الرجل (الزوج). بل تصبح – وما تملك – من ممتلكات أسرة الزوج . وإذا ماارتكبت جريمة فى حق زوجها أو أسرته ، فعليها أن تواجه مجلس عائلة الزوج ، وهو « وحده » الذى يقرر أو يفصل فى شأنها .

والزواج الثالث ، أو الصيغة الثالثة من صيغ الزواج التى يقررها القانون الرومانى ، هو الزواج الذى ينعقد بعد إتمام عام من العلاقة الكاملة بين الرجل والمرأة التى يختارها « كمشروع » زوجة . هو نوع من الزواج التجريبى : هل يستمر ، أو لايستمر . وطوال هذا العام ، تظل المرأة – فى نظر القانون والمجتمع – عضوا فى أسرة أبيها ؛ وبعد عام « التجربة » تنتقل انتقالا قانونياً كاملا إلى أسرة الزوج وتصبح فى عصمته وعصمتها .

وكان هذا النوع الثالث – التجريبى – من الزواج يتيح فرصا رحيبة واسعة للانطلاق والانفلات . فالمفهوم الرومانى مثلا لمعنى

« العلاقة الكاملة المستمرة لمدة عام كامل » يعنى أن المرأة إذا غابت – ولو أكرهت على ذلك – عن بيت « الزوجية » الذى يقيم فيه « الزوج » لمدة ثلاثة أيام متتالية بلياليها ، فللزوج أن يتحرر من ارتباطه أو يبدأ عام « التجربة » من جديد ! وفى المقابل ، تستطيع المرأة بقليل من الحيلة والدهاء ، أن تستفيد من هذا الحق ، إذا كانت تنعم بقدر كبير من التحرر والانطلاق وهى فى كنف أبيها وأسرتها قبل أن تصبح « أسيرة » بيت الزوجية ، فتؤجل الزواج القانونى النهائى قدر ماتستطيع . خاصة إذا علمنا أن الفتاة كانت تطلب للزواج وهى فى سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ، ومن رجل لاتكاد تعرف عنه شيئاً وهى تعلم علم اليقين ، أنها لن تنجو من القتل أو الذبح فى الحال ، إذا كانت فى عصمته وضبطها فى وضع مخل بالشرف ، كما أنها تدرك عن ثقة ، أنها وهى فى حماية أبيها ، لن تنال عقوبة عادة أكثر من اللوم أو الموعظة إذا ماارتكبت خطأً ما ، وأن عقوبته أهون كثيراً من العقوبات التى يقررها مجلس عائلة الزوج . وعلى أية حال ، مهما حاول الزوج « المجرب » أو حاولت الزوجة التى هى « تحت التجريب » أن يمد أحدهما أو كلاهما فى فترة التجربة ، فلابد من حسم الموقف قبل أن تبلغ الفتاة سن الخامسة والعشرين ، وهى السن التى كانت تعتبر نهاية الفترة الذهبية من عمر المرأة ، حيث ينصرف عنها الخطاب ، ويتأفف منها الطلاب . ثم اختفى تدريجيا هذا النوع من الزواج . وشيئا فشيئاً ، أخذت المرأة فى المجتمع الرومانى – خاصة فى المستويات العليا من الثراء والسلطة – تكتسب مكانة وتنتزع موقعا وتمارس نفوذا ، إلى الحد الذى أفزع النبلاء ، وأراق – بسببها – بحاراً من الدماء .

ولكن ماذا عن المرأة العادية فى المجتمع الرومانى ؟ يصرخ « كاتو » غاضبا فى مجلس الشيوخ قائلا : «لقد احْمر وجهى من الخجل ، وأنا أشق طريقى عبر جموع النساء لكى أبلغ مكانى بينكم ، وقد رأيتهن متجمهرات صاخبات ، يصحن بمطالبهن . أين الرجال ؟ إذا كان للمرأة شكاية أو مطلب ، فلتسرّ به إلى زوجها . ولو كان لدى الرجال قدرة على حفظ زوجاتهم داخل البيوت ، لما شاهدنا تلك المناظر المخزية . إن المرأة ضيقة الأفق عسيرة الفهم ، حيوان يصعب توجيهه وقياده ، لو تركْتَ لها العنان ، أفسَدتْ كل شيء .. هل يُردْن الحرية الكاملة ؟ فلنقلها فى صراحة وبوضوح : إنها حرية الفسق والفجور » ! ثم يتابع كلامه لأعضاء المجلس (وكلهم بالطبع من الرجال) : « إذا أنت تنازلت لهن مرة عن حق ، طالبن بغيره ، وهكذا حتى يبلغن فى النهاية مرتبة المساواة الكاملة مع الرجل . هل هذا ممكن ؟ هل هن يتحملن ذلك ؟ هراء ! إن كل ماتطمح إليه ، هو الزينة والخُيلاء .. أن تزهو على الأخريات بحليّها وملابسها . فإذا كان فى مقدورها أن تقتنى شيئا ، أسرعَتْ لشرائه . وأن تاقت نفسها إلى شيء ولم تقدر عليه ، ألحت على زوجها لكى تحصل على المال . ومسكين زوجها سواء كان قادراً على العطاء أو لم يقدر . فهو إن عجز عن تحقيق رغبتها ، حصلت هى على ماتريد من رجل آخر ..» !

وعندما سئل الفيلسوف والخطيب الرومانى الجهبذ « سيشيرون » بعد أن طلق زوجته : هل سيتزوج مرة أخرى ؟ أجاب على الفور : « بالقطع لا . فلن استطيع أن أشقى مع الفلسفة ومع زوجة فى وقت واحد »!

الرجل والمرأة فى المجتمع الرومانى

كان واضحاً إذن أن كلا من الرجل والمرأة فى المجتمع الرومانى ، واجه متاعب أسرية متساوية . ولما أصبح الطلاق سهلا ميسورا ، كانت المرأة هى الأكثر شقاء ومعاناة ، لأن عواطفها وتطلعاتها ومطالبها كانت تفوق قدراتها المادية عادة . وحين كان الزواج يتم أساساً بدافع سياسى ، كانت المرأة أيضاً هى الأكثر تعرضا للخسارة والشقاء . والأدهى من ذلك وأمرّ ، أن يكون الطلاق بدافع سياسى . وأكبر دليل على ذلك طلاق الإمبراطور « يوليوس قيصر » من زوجته « بومبيا » فقد اعترف قائلا : إنها لم تقترف إثما ينال من أخلاقها ، فهى فوق مستوى الشبهات ، ولكن لمجرد أنها زوجة رجل ليس فقط حاكم روما المُطْلق ، بل أيضاً على رأس النظام الكهنوتى ! وحينما انهارت روابط الأسرة ، وقل الإنجاب ، وكثر الطلاق ، وانصرف كثير من الرجال عن الزواج ، فى الوقت الذى تتابعت فيه الحروب وحصدت أُعداداً لاتحصى من الرؤوس ، تقلص إشعاع الدولة الرومانية ، وأخذت شمسها فى الغروب . فلما احتاجت الدولة إلى الأيدى العاملة ، وفتحت أبوابها « للبرابرة » الزاحفين عليها من كل مكان ، كان هذا إيذاناً مروعا بالانهيار والسقوط .

ثم جاء الاســلام ..

تفضـــلى ياهـانم

من المؤكد أن عدداً كبيراً من نساء هذا الجيل - من الزوجات والفتيات - لايعرفن شيئا عن السيدة « صفية مصطفى فهمى » .. وحتى إذا أضفنا شيئاً للتوضيح وقلنا إنها السيدة « صفية زغلول » ، فإن اللاتى يعرفن هذا الاسم أو سمعن يوما عنه ، معلوماتهن عنها وعن جيلها تتضاءل كثيراً أمام مايعرفن ويحفظن من تفاصيل حياة الممثلة فلانة ، والمطربة علانة ، والراقصة إياها ، ومصممة الأزياء مرجانة ! ولا فخر ! فتلك آفة من آفات الإعلام الضحل ، والثقافة المتدهورة ، والإعداد السقيم للأجيال .. ولله الأمر !

. فى ليلة زفاف « صفية »، ابنة مصطفى باشا فهمى رئيس وزراء مصر سابقا ، إلى « سعد زغلول » ، قالت لها أمها توصيها قبل أن تغادر بيت أبيها . قالت : - سوف يأتى (زوجك) بالسيارة ، ويأخذك لتركبين معه . وعند باب بيته سينزل ويقول لك : تفضلى ياهانم .. فلا تنزلى وراءه . فيقولها مرة ثانية . فامتنعى أيضا . وفى المرة الثالثة أنزلى إليه وادخلى بيتك .

وجاءت السيارة بالعريس الشاب ، وأخذ عروسه من بيت أبيها ، وسارت بهما إلى بيته فى حى الظاهر . ونزل . ثم قال :« تفضلى ياهانم» . وتشبثت العروس بمكانها ولم تنزل ، عملا بنصيحة الأم ، وانتظرت ليكرر دعوتها . وطال الانتظار .. ثم طال .. وفوجئت بالعريس يستدير متجها إلى بيته بلا تردد .. أو كلمة واحدة . وهنا قفزت « صفية » من السيارة وأسرعت لتلحق به ! وفيما بعد ، حين

استعادت ذكرى هذه الواقعة ، علقت عليها بكلمة ذات دلالة حين قالت : « لقد ظللت بعدها أهرول خلفة طوال حياتى » !

إن « سعدا » يومها لم يكن هو « سعد » الذى عرفه الناس فيما بعد ، وزيراً وزعيما للثورة المصرية (١٩١٩) ثم رئيسا للوزراء .. ولكنه سلك مسلك رجل الشرق العربى ، الزوج ، حين يتطلب منه الموقف المفاجىء أن يتخذ القرار الحاسم عند مفترق الطرق . وهى - الزوجة - سلكت مسلك المرأة الشرقية العربية ، حين يتطلب منها الموقف المفاجىء أن تتخذ قراراً تصحح به خطأ وقعت فيه ، أو توضح به تصرفا نشأ عنه غموض فى التصور والفهم ، وربما جلب شرا أو قطيعة . والموقف كله يؤكد معنى عرفه العرب منذ القدم ، وتوارثوه نصيحة يحفظها الرجال والنساء: « النساء للرجال خُلِقْن ، ولهن خُلق الرجال » .

ســلوك المرأة العربيـة

وسلوك المرأة العربية الشرقية الحصيف السديد ، يصـل إلى ذروة الوعى عند الصحابية الجليلة السيدة «خوْلة بنت ثعلبة» التى وقفت موقفا شجاعاً نبيلاً منصفا وهى تخاطب رسول الإسلام – ﷺ – بل وتجادل بشأن يمين الطلاق الذى رماها به زوجها ، إذ قال لها : أنت علىّ كظهر أمى . وكانت يميناً معروفة وشائعة بين العرب ، يأخذون بها ، ويفرّقون بها بين الرجل وامرأته . لكن هذه السيدة ، بفطرة صافية ، ومنطق رشيد ، وحجة مستنيرة ، تستخدم سماحة الإسلام وعظمته التى تتيح للمرأة كما تتيح للرجل أن تعبر عن رأيها وتناقش ، فتشجب هذا اليمين ، وتهْدم هذا السند للطلاق ، وان وقفت وحدها ضد العُرف المتبع ، وفى مواجهة كل الرجال ، وتقدم الدليل : –

يا رسول الله .. لقد كبرت سنى ، وضاع شبابى .. ولى منه أولاد صغار .. إن تركتهُم إليه ضاعوا .. وإن تركهُم إلىّ جاعوا .. ووالله يارسول الله ماهذه بيمين طلاق ! والنبى – صلوات الله عليه – ينصت ويسمع ، لايقاطعها ، ولاينهرها ، ولايسترضيها « بأى كلام » . ويعلّم الدنيا – وإلى يوم القيامة – كيف تحترم المرأة ، أية امراة (فلم تكن خوْلة ثرية ولاسياسية ولا زوجة زعيم أو وزير أو رجل مهم).. كيف يُترك لها التعبير عن رأيها على رءوس الأشهاد .. فوق رءوس الرجال .. كيف يؤخذ برأيها – إن كان صائبا معقولا – فى أمر يتعلق به مصير بيوت وأسر ومستقبل المجتمع كله ..

وفى الحق ، أن المولى الحق عز وجل هو الذى ألزم المسلمين جميعاً أن يأخذوا بهذا الرأى ، فأنزل تشريعاً فى قرآن حكيم يقرأه المسلمون إلى يوم الدين فى سورة سُميت « المجادَلَة » : « قد سمع الله قول التى تُجادِلُك فى زوْجها وتشتكى إلى الله ، والله يَسمعُ تحاوُرَكُما إن الله سميع بصير » ويصف المولى جل شأنه هذه اليمين المحفة بأنها : « مُنْكراً من القول وزُورا » .

واللافت للنظر ، أن المرأة هنا هى الأحرص على تماسك الأسرة ، وعلى وصل ماانقطع ، وعلى عدم « خراب البيت » كما يُقال ! لامجال للغرور الكاذب ، ولا تمسح بوهم المحافظة على الكرامة وماء الوجه ، ولا التعالى بمناطحة الرأس بالرأس ، ورد الصاع صاعين .

ويبدو أن هذا المجتمع العظيم الفريد ، حين فهم بحق رسالة الإسلام ، وحين قربت إلى أعماقه روح الإسلام ، وشرب من نبع الإسلام حتى ارتوى وتشبعت به خلاياه .. سار تيار الحياة فيه على نحو عجيب ، لم يُعرف قط من قبل . فهو يجمع بين أمرين خطيرين لا مندوحة عنهما ولابديل لإصلاح الفرد والمجتمع ، وهما : سلاسة الصدق ، وسلاسة الثقة .

ونقول « السلاسة » بمعنى التدفق التلقائى الصافى الناعم الجميل العذب . لاتشوبه شائبة نفاق ، أو تظاهر ، أو مواربة ، أو تأفف ، أو تردد ، أو خمول .

الصدق فى تناول « الإسلام » ككل : فى العمل الخاص والعمل العام ، فى التعامل الفردى والتعامل الجماعى ، فى السلوك الشخصى والسلوك الاجتماعى ، فى الحديث مع النفس وفى التخاطب مع الأهل

والقريب والبعيد ، فى الصلة والتواصل مع الله ومع الناس .

وبهذا الصدق السلس ، لم يكن هناك - ولو مجرد تفكير - فرق فى الضمير والفهم بين القيام للصلاة والقيام للزوج . أو فرق بين طاعة الله وطاعة الراعى الصالح . أو فرق بين أداء حق الله وحق عباد الله .

فكلها عبادة ، وكلها مشاركة فى المسئولية . وكلها مسارعة إلى استجلاب رضاء الرب بحسن أداء الواجب . هو التسليم الكامل الشامل لله عز وجل فى كل ماأمر ، وفى كل مانهى ، وفى كل ماشَرع وأوصى ورغّب .

وبهذا الصدق السلس ، سارت الحياة - حياة الفرد ، وحياة الأسرة ، وحياة المجتمع كله - بسيطة طيبة ، ميسورة رضية ، متواضعة ثرية . ومهما تبدلت الأمور العارضة ، ومهما تغيرت الأحوال الطارئة ، فإن نسيج الحياة الطيبة الرضية الثرية بالصدق ، لايتمزق ، ولايتهلهل ولا يبلى ولاينخرق .. فكلٌّ قد عرف مكانه ، وكل قد طهر قلبه ويده ولسانه . فنَعِم الأزواج ، وسعد الأولاد ، ورضى الحاكم ، واطمأن المحكوم .

والثقة الصادرة عن هذا الصدق ، بددت بكل الحسم ريح التنابذ والشقاق . وطهرت النفوس قبل الرءوس من سخائم الاستعلاء والتمرد ، وعطّرت حين أمطرت سحائب الرحمة ، فذاب الخوف ، وزال القهر ، وازهر الوفاء والإخاء والحب . وبهذه الثقة : توادّ الأزواج ، وعز الأولاد ، وتقوّى الحاكم ، وترقى المحكوم .

والحاكم قد يكون رب الأسرة ، أو رب العمل ، أو رأس الأمة .. لاحاجة إذن إلى الحقد والعراك ، ولا ضرورة تدفع إلى التطاول والشقاق ، أو ضغينة تستجلب التنابذ والقتل وسفك الدماء ..

دستور الأسرة

فى نطاق الأسرة – وهو مايعنينا فى هذا السياق – يتحتم – إيمانيا قبل أن يكون أخلاقياً ـ أن يسود «المعروف»، و«الاحسان» و«العفو» و«الصفح» و«المغفرة» قبل أى اعتبار، وقبل أية محاسبة، وقبل أى اتفاق أو افتراق .. حقا على الزوج، حقا على الزوجة .. على السواء . ولم تعرف البشرية من قبل ولا من بعد مثل هذا السمّو فى أداء الواجبات والحقوق !

- ﴿ **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف** ﴾ – البقرة ٢٢٨
- ﴿ **وعاشروهن بالمعروف** ﴾ النســاء ١٩
- ﴿**وآتوهُن أجورهُن بالمعروف** ﴾ – النســاء ٢٥

حتى فى مواقف الخلاف التى قد تؤدى إلى المفارقة والطلاق :

- ﴿ **فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف** ﴾ الطلاق ٢ .
- ﴿ **وإن امرأة خافت من بَعْلها نُشوزا أو إعراضا فلا جُناح عليهما أن يُصْلِحا بينهما صُلحا ، والصُّلح خير ، وأحضرت الأنفس الشح ، وإن تحُسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا** ﴾. – النساء ١٢٨
- ﴿ **الطلاق مرَّتان ، فإمساك بمعروفٍ أو تَسْريح بإحسان** ﴾ – البقرة ٢٢٩
- ﴿ **لا جُناح عليكم إن طلقتم النساء مالم تَمَسُّوهُن أو تفرضوا لهن فريضة . ومَتِّعوهُن على الموسِع قَدَرُه وعلى المُوْسِر قَدَرهُ، متاعا بالمعروف حقا على المحسنين . وإن طلقتموهُنَّ من قَبْل أن تَمَسُّوهن وقد فَرَضتم لهُنَّ فريضةً فنصفُ مافرضْتُمْ ، إلا أن يَعْفُون أو يَعْفوَ**

الذى بيَده عُقْدَة النكاح ، وأنْ تَعْفوا أقربُ للتقوى . ولاتَنْسَوُا الفضَل بينكم ، إن الله بما تعملون بصير﴾. – البقرة ٢٣٦/٢٣٧

• **﴿ ياأيها الذين آمنوا إنَّ من أزواجكم وأولادِكم عدوا لكم فاحْذَروهم ، وإن تَعْفُوا ، وتصفحوا ، وتغفروا ، فإن الله غفور رحيم ﴾** التغابن ١٤ .

وواضح من تلك الآيات المباركات – وغيرها – أن الأمر والتوجيه والوصية والحكم ، تتجه أكثر ماتتجه إلى الزوج وهذا حق وعدل ..

هكذا جاء الإسلام يطيح بومضة مبهرة ، كل الظلم والظلمات التى كانت تتراكم فى أدمغة الرجال وتُزين لهم وهْم السيادة المطلقة على المرأة .

جاء الإسلام ليقتلع بضربة حاسمة – وإلى الأبد – كل جذور الاستعلاء والإذلال والقهر التى تشابكت واستقرت فى نفوس الرجال ومنحتهم – دون مبرر – حق الملكية المطلقة للمرأة .

وإن ماكتُب فى هذا الموضوع – الإسلام والمرأة – كثير مشهور مكرور . فيكفى أن تشير إلى معالم بارزة ، تنبه الأذهان ، وتربط بين أطراف مانحن بصدده .

يكشف القرآن سرا من أسرار الخلْق ، ويوضح حقيقة تضع كلا من الرجل والمرأة على درجة واحدة من سلم النشأة والتطور والحياة ، فيقفان معا فى مواجهة متكافئة متوازنة إزاء تحمل المسئولية وأداء الحقوق والواجبات . وهكذا تبدأ سورة النساء :

﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا ربكم الذى خلَقَكم من نفْسٍ واحدة ، وخلق منها زوْجَها ، وبَثَّ منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله

الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ .

وفى سورة البقرة يفصل الحق - عز وعلا - نهائيا فى « القضية » فيقرر :

﴿ ولهنَّ مثلُ الذى عليهن بالمعروف ﴾ .. ولا تمر مرور الكرام على كلمة « بالمعروف » .. كان يمكن الاكتفاء بأن لهن مثل الذى عليهن .. والمعنى واضح والقرآن حكيم .. لكن بإضافة « بالمعروف » يكون أحكم وأجل وأعظم .. وسبحان الحكيم اللطيف بعباده .. إنها إضافة « إنسانية » رائعة .. تخضع الناس لا لأحكام قانون صارم أو تشريع حاكم مستبد ، وإنما تضبط علاقات الأسرة والمجتمع على إيقاع الرحمة ورنينها الشجىّ العذب . ويستحيل أن تجد قانوناً أرضيا ـ مهما تفلسف المشترعون - يحمل هذا المعنى أو يلتفت إلى هذا الجانب الوضاء .. والذى من خلاله يترقى الإنسان ..

القوامة لاتعنى الطغيان

ثم تمضى الآية الكريمة ـ وهى فى الصياغة والإحكام آية ـ لتضع المساواة فى إطار العدل .. فتضيف : « وللرجال عليهن درجة » .

والذين يجُهدون أنفسهم فى الدوران الكسيح اللاهث حول هذه الكلمة : « درجة » ، فيحاولون – عبثا – الإيهام بأن الإسلام يفرض « تسيد » الرجل .. ويحط من شأن المرأة .. ويبارك التفرقة العنصرية .. فهؤلاء إما بسطاء ، وإما خبثاء ، أو لايعرفون .

فالمساواة معنى نفسى ونظرى عام ..

حين نقول : الناس متساوون ، فنحن على صواب ، فإذا أطلقنا المساواة فى كل شىء ، وفى كل حالة ، وفى كل تقدير ، فنحن إذن مخطئون .

الناس متساوون فى الحقوق العامة ، فى أداء الواجب ، فى تحمل المسئولية .. لكنهم ليسوا كتلا صما .. فالمريض مثلا يسقط عنه أداء بعض مايجب عليه حتى فى العبادة كالصيام (إلى أن يشفى) والفقير يسقط عنه أداء الزكاة وهى من أركان الإسلام . والسفيه لا حق له فى تملك أمواله وإدارتها .. والقاتل عامداً مع سبق الإصرار والترصد ـ رجلاً كان أو امرأة ـ يُسلب منه حق الحياة .. فيُقْتَل .

وفى واقع الأمر ، تستحيل المساواة الكاملة بين الناس ، لأنهم فى الخلقة والنشأة غير متساوين كلهم جميعا : فى الصحة ، والقوة ، والذكاء ، والعزيمة ، والطموح . فى العلم ، والخبرة ، والتكيف ، والتحمل ، والسعى ، والمثابرة ، والصبر ولو تساوى الناس فى ذلك ، لما استقامت أمورهم ، بل ولما استمرت حياتهم .

لكن الخطأ الذى يقع فيه الناس ، ويسبب شقاء الناس ، ويفسد حياة الناس : أن البعض منهم يتصور أن تلك الفروق الطبيعية والمكتسبة تبرر الحيف فى أداء الأمانات والحقوق إلى أصحابها ، و « يفلسف » مشروعية تعالى طبقة على طبقة (الإسلام لايعرف تقسيم الناس إلى طبقات أو فئات أو مستويات ، ولا يُقر – بل يرفض ويتوعد – من يرفعون أنفسهم فوق الرءوس باسم الصفوة).. إذ من هنا ينشأ الكبرياء والخيلاء ، والتباهى بالمال أو الجاه أو العصبة .. أى « التسيد ».. ومادام قد وجد « السيد » فلابد أن يوجد « العبد ».. ومادام قد وجد « التميز » ، فلابد أن يوجد الخوف .. وجوهر الإسلام ومضمونه ورسالته : أن يسلم الناس جميعاً أمرهم « للسيد » وهو الله ، وأن يخضع العباد كلهم لله .. فلا رهبة ولاخوف ولاخشية إلا منه وحده .. له الخلق والأمر .

فهل تُعطى « الدَّرجة » للزوج هذا المفهوم – « السيد » أو السيادة – وتجعله يستعبد الزوجة ؟ .

وبقليل من الفهم والتصور .. ماهو « مقدار » الدرجة ؟ هل « درجة » واحدة فى تحمل المسئولية أو فى تولى القيادة ، ترفع إلى مستوى التسيد وتخفض إلى مستوى المذلة ؟! .. والقرآن الكريم – وهو يكمل بعضه بعضا ويفسر بعضه بعضا – يوضح الباعث الطبيعى أو الاجتماعى الذى يبرر استحقاق الرجل لهذه الدرجة : ﴿الرجال قوامون على النساء : بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم﴾ . فالأمر إذن « تنظيم » طبيعى وظيفى متزن .. فالقوامه قيادة ورعاية واحتمال للمسئولية ، ولاتعنى أبدا سيطرة أو سلطان الأمر

والنهى والتحكم الطاغى . وفى التكوين والخَلْق ، فضّل الله تعالى الرجل بالقدرة على « القيام » بهذه المهمة ، وعلى « القيام » برعاية الزوجة والأبناء وحمايتهم والسعى للانفاق عليهم والصبر على تحقيق حاجاتهم ومطالبهم ، وعلى « القيام » بحسن تربيتهم تربية صالحة تؤهلهم لتحمل المسئوليات المتوقعة ، لينجحوا فى الحياة « وليفوزوا بسعادة الدنيا والأخرة ..

وفى هذا الإطار .. وداخل بيت الأسرة ، يخاطب الإسلام المرأة كما يخاطب الرجل « كإنسان له إرادة واختيار ، وفيه إدراك ووعى ، وقادر على تحمل المسئولية وأداء الواجب من موقعه المقدور فى الحياة .. هى إنسان إذا آمن وصدق وعقد العزم وأحسن العمل، فله الجزاء الطيب والثواب الأوفى . وإذا بخل واستغنى وكذب بالحسنى ، وأساء وقصر ، فله جزاء عمله وعقاب أفعاله. المرأة فى ذلك كالرجل سواء بسواء .

أوصى الإسلام خيراً بالمرأة : أماً وزوجة وبنتا وأختا وخالة وعمة ، وأيا كانت قرابتها أو موقعها فى المجتمع .. وصان كرامتها فى كل الظروف « وقرر لها ضمانات المعيشة الكريمة المريحة .

ان كانت الأم .. فهى عزيزة مبرورة : ﴿ **وبَرًّا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا** ﴾ مريم ٣٢ ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه ، حَمَلته أمه وهْنا على وهْن .. أن أشْكر لى ولوالديك** ﴾ ١١ — لقمان ١٤ .

وان كانت زوجة .. فهى الصاحبة والسَّكنُ: ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة** ﴾ الروم ٢١ ونبى الإسلام ﷺ يوصى المؤمنين : ﴿ **استوصوا**

بالنساء خيرا » – « **ماأكْرَم النساء إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم** » – « **الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة** » ..

وان كانت ابنة .. فهى تنمو وتكبر فى أنوار الرحمة والرعاية الراشدة والحب الوافر والعطاء النبيل : « **من ابْتُلى من هذه البنات بشىء ، فأحْسَن إليهن ، كن له سداً من النار** » (والابتلاء هنا يعنى الاختبار والتمحيص، كما يبتلى الله عباده بالعطايا والنعم ـ « **ما من مسلم له ابنتان فيُحسْن إليهما ماصَحِبتاه أو صَحِبَهما ، إلا أدخلتاه الجنة** » .

كانت المرأة محرومة من الميراث .. فقرر الإسلام لها هذ الحق فريضة ملزمة : ﴿ **للرجال نصيب مما تَرَك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون، مما قل منه أو كثر، نصيباً مفروضاً** ﴾ .

ومن هنا تقرر لها حق التملك ، وإدارة أموالها واستثمارها ، غير ملزمة ـ إذا كانت زوجة ـ أن تنفق من أموالها على نفسها ـ فى الضروريات ـ أو على بيتها ، فإن هى فعلت كَرُمت وأكرمت . ولها حق التعلم والتعليم ، وحق إبداء الرأى والمشورة ، وحق اختيار الزوج أو رفضه ، وحق الرضاء عن التعاقد ، وحق المهر (تأخذه عزيزة كريمة لاتعطيه استرضاء أو استجلابا للزوج كما يحدث فى الغرب) ، ولها حق « الرفاهية » داخل بيتها ، فأجاز الإسلام إعفاءها من أعمال البيت (كالخدمة وإعداد الطعام وإرضاع الأطفال) وعلى الزوج القادر أن يوفر لها من يقوم بهذه الخدمات .. ولها حق العمل « فيما يناسب طبيعتها وقدراتها وحاجات المجتمع ، حتى فى مجال الدفاع عن

الأمة وتمريض الجنود .. ولها حق الشهادة ، وحق الوصية ، وحق طلب الطلاق .. إنها حقوق « الانسان » الحر العزيز الكريم الإيجابى فى المجتمع ، البناء للمجتمع ، وهى حقوق لم « يتنازل » لها عنها الرجل ، ولم يتفضل عليها بها الرجل ، وإنما هى تشريع من رب العباد .

هى حقوق لم تحظ بها ، ولم تحصل عليها المرأة فى شرق ولا غرب .. وحتى الآن . ولا شأن للإسلام بما دخل عليه ، أو أقحم فيه من أهواء وسياسات وقوانين وبدع ، ما أنزل الله بها من سلطان « شوَّهت فى بعض العصور والمجتمعات صورة المرأة ، وأهدرت بعض حقوقها ، أو عاقتها عن أداء واجبها المشروع .

والعجيب المبهر ، أن تلك الدَّفعة الهائلة ، التى رفَعت مكانة المرأة فى المجتمع « درجة » بل درجات ، جاءت فى وقت كان المجتمع العربى فيه يضع المرأة موضعا متدنيا بالنسبة للرجل ـ فى الأغلب الأعم ـ فهى ليست تابعة له وخاضعة خضوعاً كاملاً وحسب ، بل ومحرومة تماماً من معظم الحقوق الإنسانية والاجتماعية .

صحيح أن التاريخ ـ ويعضده ماورد فى القرآن الحكيم ـ روى شيئاً عن نساء عربيات ملكن وحكمْـنَ وكان لهن دور مشهود ومؤثر فى حياة مجتمعاتهن ، مثل ملكة سبأ فى اليمن .. ويروى التاريخ أيضاً شيئاً عن زينب (أو الزبّاء)[1] ملكة تدْمر العربية التى وسَّعت حدود دولتها حتى بلغت سهول آسيا الصغرى (تركيا) شمالا ومناطق من

---

(١) يقال أنها سميت الزباء لغزارة شعر حاجبيها ولاتساع عينيها وكانت ذات حسن وجمال مع شخصية مسيطرة قوية ، فكانت تقود الجيوش وتحسن الادارة وسياسة الحكم . وهى التى قالت قولتها المشهورة التى صارت مثلا : « بيدى لا بيد عمرو » فطعنت نفسها حينما أيقنت أن عمرو بن عدى يوشك أن يقتلها انتقاما لأخيه ملك الحيرة الذى أسَرَته .

شرق أفريقيا جنوباً .. كل ذلك صحيح .. لكن المرأة فى المجتمع العربى بعامة كانت مثلا :

محرومة من حق الميراث والملكية ، محرومة من حق اختيار الزوج ، محرومة من حق طلب الطلاق وإن هجرها زوجها واحتبسها حتى تهلك ، محرومة من حق إبداء الرأى ، حتى داخل البيت وفيما يتعلق بشئون الأسرة ، بل أحياناً تحرم من حق الحياة بداية : ﴿ **وإذا المَوْءُودَةُ سئلت * بأى ذَنب قُتلت** ﴾ . التكوير ٨ ـ ﴿ **وإذا بُشِّر أحدُهم بالأنثى ظَل وجهه مُسْوَدّاً وهو كَظِيم . يتوارَى من القوم من سوءِ مابُشِّر به ، أيُمسكُه على هُونٍ أم يَدسُّه فى التراب ، ألا ساء مايحكمون** ﴾ النحل ٥٩ ـ ﴿ **ولا تَقْتُلوا أولادَكم خشية إملاق ، نحن نَرْزُقُهم وإياكم * إن قَتلَهم كان خِطْئا كبيرا** ﴾ . الأسراء ٣١

وحين وَعَت المرأة المؤمنة حقيقة موقعها ومكانتها فى مجتمع الإيمان ، حين التزمت المرأة المؤمنة بحسن العمل وصدق الأداء – طاعة لربها أولا وأخيرا – سعدت هى وأسعدت ، كرُمت هى وأكرمت ، وكانت قدوة فى الفضائل والخيرات ..

من المبالغة غير الصحيحة أن يظن أحد ، نقاء أى مجتمع من وقوع خطأ أو خطيئة . فالناس – رجالا ونساء – يخطئون ، ويتعلمون من أخطائهم فيصححون . ونوازع الإساءة والسوء فى النفس البشرية تتفجر – كالبركان – حينا وتخمد ، ونوازع الحسن والإحسان فى النفس قد تضعف حينا وترقد . وتلك أحوال « طبيعية » لتقلبات النفس وترددها بين الخير والشر ، بين المعصية والاستقامة ، وفى منهج

الإسلام مايعين المرء على تحرى الحسن والاستقامة وإرادة الخير حتى تكون هى الغالبة على تفكيره واختياره وسلوكه وأفعاله ، ويصبح « حبيب » الرحمن :

﴿ إن الله يحب التوابين ، ويحب المتطهرين ﴾ البقرة ٢٢٢ –

﴿ إن الذين اتقوا إذا مَسَّهم طائف من الشيطان تذكروا ، فإذا هم مُبْصِرون ﴾

والخطاب هنا والتوجيه للمرأة كما للرجل سواء بسواء ولكن ..

مالعمل إذا مال الخطأ كل المَيْل ، وصارت الخطيئة « جريمة » ، تستوجب العقوبة ؟

مرة أخرى ينشر الإسلام مظلة رحمته ، ويحيط المجتمع بسياج عدالته . والإسلام عقيدة وشريعة ومنهاج ونظام حياة ، كل لايتجزأ ولا ينتقى منه ليؤخذ بعضه أو يترك .

وهل تلتقى الرحمة والعدل فى عقوبة مثلا تُفضى إلى قطع اليد أو الرِّجل أو الرقبة ؟ كيف .. ؟!

من القواعد المستقرة فى ضمير كل مؤمن ، والتى لاينكرها عاقل منصف ، أن الرحمة من أبرز دعائم الإسلام وغاياته : فالله تعالى هو الرحمن وهو الرحيم ، وقد أرسل خاتم الأنبياء صلوات الله عليه ﴿ رحمة للعالمين ﴾ .

لكن الرحمة لاتعنى التغاضى عن الجرائم والأخطاء التى يترتب عليها إهدار حقوق أو إتلاف ممتلكات أو الإضرار بأمن الفرد والمجتمع . إن التسامح أو العفو فى مثل تلك الأحوال ضعف ومحاباة وظلم ، والعدل والظلم لايجتمعان أبدا معا .

قد يتسامح المرء ويعفو ويصفح عمن أساء إليه أو نال منه ، أو أهمل فى عمل يتعلق به وحده . فإذا ترتب على هذا التسامح والصفح انتصار باطل، أو إضرار بحقوق الغير أو المجتمع ، فلا معنى للتسامح هنا ولا مجال للصفح . هنا يلزم العدل . وكلما قوى العدل وظهر للجميع واشتد ، كلما اطمأن الناس وهدأت نفوسهم واستقامت أمورهم ، وعظمت منافعهم . وعندئذ يترفق قويهم فلا يشطط ، ويشتد ضعيفهم فلا يرهب ،ويخاف المسىء فلا يعتدى ، ويستوثق المحسن فلا ينطوى .. وتلك هى الرحمة الشاملة ، يستظل بها الناس جميعا .. فالرحمة فى كنف العدل نعمة ، والرحمة فى غيبة العدل شقاء ..

لذلك ، قالت السيدة عائشة رضى الله عنها تصف « زوجها » النبى محمداً ﷺ : «**ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً، ولا امرأة، ولا دابة، ولا شيئاً قط .إلا أن يجاهد فى سبيل الله. ولا نِيلَ منه شيء** (أى أسىء إليه) **فانتقم لنفسه، إلا أن تُنْتَهَك حُرُمات الله، فإذا انتهكت حرمات الله، لم يقم لغضبة شيء ، حتى ينتقم لله**» .

الإســلام والعقــوبة

إذا كانت العقوبة رادعة عن الشر ، مانعة للجرُم فكيف تستقيم معها رحمة أو رأفة أو شفقة ؟ والواقعة المشهورة تحكى أن أعرابيا – أميا بسيط – قدم مكة من البادية ولم يكن سمع بالإسلام ولا بالقرآن ، فجلس يستريح بجوار الكعبة ، فسمع قارئاً يتلو من سورة المائدة : ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نَكَالاً من الله** ﴾ ثم تابع الآية فقال : والله غفور رحيم . فاستوقفه الأعرابى – الأمى البسيط – وقال له :

ـــ من قائل هذا الكلام ؟

ـــ الله .. هذا قرآن نزل من السماء .

ـــ عجبا .. إذا كان يغفر ويرحم فلماذا نكالا يقطع ؟!

فأعاد القارىء التلاوة : ﴿ .. **نكالا من الله ، والله عزيز حكيم** ﴾ .. وهذا هو الصواب .. والعدل .

فى مجتمع يسود فيه الخير والشر ، فى عالم يموج بالأخيار والأشرار ، لايستقيم أمر الناس إلا بالعدل أولا .. وبالعدل آخرا .. وحينئذ تنهض وتثمر الفضائل كلها بداية من الرحمة .. بلوغا إلى : ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم** ﴾ .. وانتهاء ﴿ **بقوم يحبُّهم ويُحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ، ولايخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم** ﴾ ـ المائدة ٥٤ .

إن المرأة تخطىء ، كما أن الرجل يخطىء . وكلاهما أمام الشريعة

والعدل سواء . فالفضائل يجب أن تحمى ، والخير يجب أن يعلو ويسود . ولا أحد أكبر من شرع الله .

والواقعة المشهورة عن تلك السيدة القرشية الشريفة التى سرقت ، وأرادوا أن يعفو النبى ﷺ عنها فقال : « **إنما أهلك من كان قَبْلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد . وايْمُ الله ، لو أن فاطمة بنتَ محمد سرقت لقَطعْتُ يدها** » .. تلك الواقعة خير دليل واقعى حى ، على عدالة الإسلام وقوة القائم على شريعته .

فإذا عوقب الخاطىء – أو الخاطئة – بالعدل ، ونال مايستحق من جزاء رادع له ولغيره ، واستقام من بعد وتاب وأناب ، لم ينْتقص ولم يُنْتبذ ولم يُعيَّر . فليس فى الإسلام مسلم منبوذ ، ولا مسلم مطارد طوال عمره . فما دام المجمع قد أخذ حقه ، والشريعة أحْسن تطبيقها ، فواجب على الناس أن يعينوا على التوبة ، وأن يفتحوا باب الأمل . وقد رُوى عن النبى ﷺ قوله : « **إن السارق إذا تاب ، سبقته يده (التى قطعت حدا) إلى الجنة . وان لم يتُب ، سبقته يده إلى النار** » .

وحين أتوه – ﷺ – برجل شرب الخمر ، أقام عليه الحد ، فلما خرج الرجل ، قال له واحد من الحاضرين : أخزاك الله ! فغضب النبى ﷺ وقال : « **لا تعُينوا عليه الشيطان** »! وتلك هى الحكمة البالغة : من حيث ينتهى العدل ، يبدأ مسار الرحمة ، ليتحقق : ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾

إن الجريمة هى فعل يستوجب عقابا . هى ارتكاب ما هو مخالف

للحق والعدل والاستقامة . ولقد أثبتت الإحصاءات والدراسات الاجتماعية ، أن الجريمة تسير مع النمو الحضارى سيراً متوازيا مالم ينشط الجانب الروحى والأخلاقى فى الإنسان وفى ربوع المجتمع بدءاً من قياداته . فكلما اتسع العمران ، وزادت فنون الصناعة والإنتاج ، زادت معدلات الجريمة وفنونها وأساليبها ، مهما وضعت قوانين ، ومهما اشتدت الرقابة ، ومهما تطورت العلوم .

لذلك ، يحرص الإسلام ، وتهدف الشريعة ، إلى تكوين الرأى العام الخيّر المهذب ، والسمو بالذوق العام الفاضل المؤدِّب .

فإذا كانت نوافذ البيت لايدخل منها إلا الهواء النظيف ، والصوت الحسن ، والشعاع الوضاء ، والدفء المنعش .. صح مَنْ فى البيت ونهضوا وانتعشوا .

إذا كانت نوافذ المجتمع – وفى مقدمتها كل وسائل الإعلام والتثقيف والتوجيه – لايصدر عنها إلا الخير والفضيلة ، الجمال والجد ، الوضاءة والصدق ، استقام أمر الناس على هذه المعانى والقيم ، وتعاونوا على البر والتقوى ، وتألفوا على الأمر بالمعروف ، وتعارفوا على التعامل بالحياء والرضاء وحسن الوفاء .. فتتراجع الجريمة ، ويتوارى المجرم ..

لأن الجريمة المعلنة ، تنزع الحياء من المعصية ، وتوهن الخوف من الإعتداء . ولذلك يحذر المولى عز وجل المؤمنين : ﴿ **لايُحب الله الجَهْر بالسوء من القول**﴾ النساء .. ١٤٨ ويتوعد الذين يُشيعون الفواحش وأخبار ومثيرات الإجرام والجرائم ، وإشاعات السوء ، يتوعدهم بالعذاب فى الدنيا وفى الأخرى : ﴿ **إن الذين يُحبون أن تَشيع الفاحشةُ فى الذين آمنوا ، لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لاتعلمون**﴾ – النور ١٩ .

منهـــاج حيــــاة

لايكتفى الإسلام بالتحذير والتخويف والمنع ، وإنما يسد المسالك التى تفضى إلى وقوع الجريمة فعلا .. فيهذب النفس بالعبادات المفروضة الموقوته ، وبالعبادات التطوعية غير المفروضة ولا الموقوتة .. كالصلاة، والصيام، والصدقة، والحج، والعمرة.. ويهذب وحدات المجتمع ـ وهى الأسر ـ بالتذكير الدائم للآباء الطيبين والأمهات الطيبات أن يحسنوا – ويُحْسنَّ – الرعاية وأداءِ الأمانة والقيادة .. ويهذب الجماعة والمجتمع بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتحسين الحسن وتقبيح القبيح .. ويهذب الرأى العام بالحرص على عناصر التماسك والإخاء ، وتجنب الفواحش والخصومات والتفاهات .. فيتلو المسلم صباحاً ومساءً ، أو يسمع من يرتل مثل قوله تعالى :

﴿**وقولوا للناس حُسنا**﴾ البقرة ٨٣

﴿**إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**﴾

﴿**وأن تصوموا خير لكم**﴾ البقرة ١٨٤

﴿**للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة**﴾ الزمر ١٠

﴿**إن الحسنات يُذهبن السيئات**﴾ هود ١١٤

﴿**ويُبَشِّرُ المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسنا**﴾

﴿**وإذا حُييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أوردوها**﴾ النساء ٨٦

﴿**والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس**﴾ آل عمران ١٣٤

﴿**والذين هم عن اللغو مُعرضون**﴾ المؤمنون ٣

﴿**والذين لايَشهُدون الزور وإذا مرُّوا باللغو مروا كراما**﴾ [الفرقان : ٧٢] .

﴿ياأيها الذين أمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة﴾ الحجرات ٦

﴿ياأيها الذين آمنوا لايَسْخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولانساء من نساء﴾ الحجرات ١١ .

﴿إن الذين يرمون المُحْصنات الغافلات المؤمنات لُعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم﴾ النور ٢٣

﴿قل للمؤمنين يَغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم .. وقل للمؤمنات يغضُضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولايُبْدين زينَتَهُنَّ﴾ [النور : ٣٠/٣١] .

﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنةٍ عَرْضها السماواتُ والأرضُ أعدت للمتقين . الذين ينفقون فى السراء والضَّراء والكَاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يُحب المحسنين﴾ آل عمران ١٣٣

﴿ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يُحب المتوكلين﴾ آل عمران ١٥٩ .

﴿ربنا اغفر لى ، ولوالدىّ، وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾ [إبراهيم ٤١] .

﴿ ربنا وسِعْتَ كل شيء رحمة وعِلْما : فاغْفر للذين تابوا ، واتَّبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدْخِلْهم جناتِ عَدْن التى وعَدْتهم ومن صلَح من آبائهم ، وأزواجهم ، وذُرِّياتهم إنك أنت العزيز الحكيم . وقِهم السيئات﴾ غافر٧/٩

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولاتجعل فى قلوبنا غِلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رءوف رحيم﴾ الحشر ١٠

وكثير من آيات الذكر الحكيم، تنبه ، وتُحذر ، وتَحْفز ، وتَنهى ، وتدفع ، وترغّب ، وترهّب .. فتحيط المؤمن على الدوام بسياج من نور ، لايُرى ببصر الحواس ، ولكن يُسْتَشف بمنظور البصيرة ، وتظهر آثاره فى فكره ووجدانه وعلى لسانه ويده وفى كل أفعاله .. تتحدث هى عنه ، ولا يصخب هو بها أو يدّعيها .. فيكون هو - هى - رحمة هادية مُهداة... وإضافة تَدْعم سلاسة الصدق ، وسلاسة الثقة ، وفيضْ الرحمة ، وسيادة العدل ..

وبهذا المنهج وحده - ووحده فقط - يتضاءل حجم الجريمة وعدد مرتكبيها - من الرجال والنساء - فى المجتمع ويعين كل فرد أخاه أو أخته على الاستقامة والعفو وتصحيح المسار والتوبة . فتحلو الحياة وينقشع الضجر ، ويتآلف الناس فلا يغشاهم اكتئاب وكدر . فمن اعتدى بعد ذلك وأجرم ، فلابد من عقابه وردعه وتحذير غيره .. لأن النفس - كما صورها أمير الشعراء شوقى - كالطفل : إن تَتْركه شب على حُب الرضاع .. وإن تَفْطِمه ينفطِم ..

وهنا يقفز مسعورا أو مذعورا من يصرخ ويقول : إنه من الهمجية والوحشية أن تُقطع الأيدى والرقاب ، أو تزهق الأرواح من أجل العقاب .. أين التحضر والمدنية ، وارتقاء المبادىء الإنسانية ؟!..

من عجب أن الذين يهيجهم هذا الزعم ، ويطمس بصائرهم هذا الافتراء ، يعيشون فى مجتمعات (أو عاشوا وانتحلوا ثقافة مجتمعات) تئن من كثافة الجرائم ، وتتوجع من توحش المجرمين ، وتدفع الثمن فادحا : فى الأمراض الخطيرة ، والقتل المستمر ، والمخدراتـ ، والاغتصاب البشع ، وخطف وخنق الأطفال ، والعدوان المسلح على

المصارف والمؤسسات والبيوت ، والتعدى فى محطات المترو أو الطرقات وفى وضح النهار ، وتكوين العصابات المسلحة والتى تستخدم أحدث منجزات العلم والتكنولوجيا .. لدرجة أن جرائم ترتكب عن بُعد ، أو عن طريق الحاسبات الإلكترونية (الكومبيوتر) وعمليات النصب والاحتيال والابتزاز بالملايين وباختصار : أصبحت الجريمة وأمْست جزءا مستمرا ومألوفا فى حياة الناس اليومية ، وفى وسائل إعلامهم التى لاتتوقف ساعة من ليل أو نهار .. وأخبار المجرمين والقتلة والمنحرفين تتوالى تباعاً مجاورة لأخبار الساسة والقادة و« نجوم » المجتمع ومحترفى الفنون .. وماأكثر الذين ينادون عندهم بتشديد العقوبات ، وإعادة عقوبة الإعدام لعلها تردع أو تزجر من يُظهر فى الأرض الفساد ..

إن الإسلام العظيم - العدل الرحيم - يعتبر الإنسانية أمة واحدة ، ومن أراد فرداً منها - عامدا وبلا مبرر - بسوء ، فكأنما أساء إلى الأمة كلها ، ومن قتل نفسا - عامدا بلا جريرة - فكأنما قتل الأمة جميعها : ﴿ **من قَتل نفْسا بغير نفْس أو فساد فى الأرض ، فكأنما قَتل الناس جميعا** ﴾ المائدة ٣٢ .

وجعل المفسدين فى الأرض ، المعتدين على أمن الناس وأموالهم وأعراضهم ودمائهم كالذين أعلنوا الحرب على الله ورسوله : ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويَسْعَوْن فى الأرض فسادا : أن يُقَتَّلوا ، أو يُصلَّبوا ، أو تُقطَّع أيْديهم وأرجلُهم من خلاف ، أو ينْفوْا من الأرض ، ذلك لهم خِزْى فى الدنيا ، ولهم فى الآخِرة عذاب عظيم** ﴾ المائدة ٣٣ .

إن العدل الحاسم القاطع الزاجر هنا ليس الغرض منه حماية فرد أو حاكم أو فئة متميزة ولا مجموعة من الصفوة .. وإنما هو يحمى المجتمع كله والأمة ككل ، وتخضع له نفوس ورقاب الكل ، القوى والضعيف ، الغنى والفقير ، فشرط الإيمان والتسليم لله : ﴿ **سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير** ﴾ البقرة ٢٨٥ .

والذى يقيم العدل هنا ، ليس أى **فرد** من الناس .. وإنما هو ولى الأمر الذى تختاره الأمة أمينا على دينها وشريعتها ومنهاجها ، الذى يصون أمنها وكرامتها وحقوقها ، أو هو قاضيه الذى يجتهد ما وسعه الجهد فى تحرى الصواب وإظهار الحق ، ويضع نصب عينيه دائما قول المولى العزيز القادر القاهر : ﴿ **ولو أن لكل نفْس ظَلَمت مافى الأرض لافْتَدَتْ به ، وأسرُّوا الندامة لما رأوُا العذاب وقُضى بينهم بالقسط** ﴾ . يونس ٥٤ .

ثم يضيف الإسلام العظيم مُكرمة «إنسانية» حتى مع المجرم القاتل أو المرأة القاتلة ...

فالجريمة التى تستوجب القتل أو القصاص ، إذا كانت متعلقة بحق شخص اعتُدى عليه — وليست متعلقة بحق المجتمع وأمنه وسلامته — جعل الإسلام لولى القتيل ، ولىّ الدم — حق إسقاط الدعوى ، وحق العفو عن القاتل . تماما مثل حقه فى أن يقيم الدعوى وأن تنفذ العقوبة . لماذا ؟

لأن الإسلام يريد — مع إقامة العدل وسلطانه على النفوس — أن يفتح أبواب التقارب والتآلف ، ويسد أبواب الضغينة والفرقة . فإذا ما النفوس شُفيت من الغيظ ، وهدأت ثائرة أهل المجنى عليه ، واحتسبوا أمرهم عند الله ، مع تيقنهم أن الحق لن يضيع وسيف القَصاص قائم ،

فقد يختارون بأنفسهم إسقاط القصاص ، وقبول العفو ، وتعويض أسرة القتيل .

وهنا لا يسقط حق ولى الأمر (فى المجتمع أو الدولة) فى الأخذ بنصيب المجتمع من القاتل ، فيعاقبه بعقوبة تعزيرية ، أى عقوبة بدنية أو مانعة للجريمة لم يرد بشأنها نص فى القرآن الكريم أو السنة ، وإنما يقدرها هو تبعا لما يراه رادعا للجانى ، وزاجرا للمفسدين أو الذين يميلون إلى الفساد .

وليس فى الإسلام جريمة قتل بدون عقوبة ، أى بغير قصاص من الجانى ، أو بدون تعويض لأسرة المجنى عليه . وهذا التعويض تسميه الشريعة «دِيَة» : ﴿**ومن قَتَل مؤمنا خطأً فتحرير رقبة مؤمنة ودِيَةٌ مسلَّمة إلى أهله**﴾ النساء ٩٢ . وتُدفع الدية إلى ورثة القتيل ، وهى تعويض مادى لا فكاك منه لأى قاتل. فإذا كان مُعسراً ولم يستطع انتقل أداء هذا الحق إلى العصبات من أقاربه، وتسميهم الشريعة «عاقلة» القاتل أو الجانى، يؤدونه عنه. فإذا لم تستطع تولت الأمة ــ ممثلة فى بيت المال ــ دفع تلك الدية ، أو التعويض المادى ، كنوع من التعاون الاجتماعى ، والمشاركة فى التبعات والتكاليف . فالدولة مسئولة عن الاعتداء العامد لأحد أفرادها ، وكان يجب أن تحتاط للأمر وتحول دون وقوع الجريمة ، تماما مثل مسئولية الأب ــ والأم ــ عن جرائم الأبناء القُصَّر ، ومثل مسئولية رب العمل عن عماله ...

ليس فى الإسلام جريمة قتل «تُقيد ضد مجهول» .. ويضيع دم القتيل هدرا . إذ يجب على القائمين بحفظ النظام والأمن أن يجتهدوا ويتحروا ما وسعهم الجهد أن يبحثوا عن الجانى وأن يمسكوا به .. فإن

تعذر ذلك وعجزوا ، جمعوا خمسين من المشهود لهم بالأمانة والصلاح من أهل الحى أو القرية ، وأقسموا واحدا واحدا أنهم لا يعرفون القاتل ولا يخفون شيئا عنه . وهنا يتولى بيت المال دفع الدية لورثة القتيل وأسرته ..

ألا يحق بعد ذلك كله ، أن يجلس رجل مؤمن صالح ينظر إلى زوجته وتنظر إليه وكانت هى حسنة الخُلُق والخلقة ، وكان هو أقل حسنا فى الخِلقة والخُلق .. فيقول لها :

ـــ ما أعظم فضل ربنا علينا .. فقد أعطاكِ إيایَّ فصبرتِ ، وأعطانى إياكِ فشكرتُ ؟!

وطوبى للصابرين والصابرات ..

وطوبى للشاكرين والشاكرات ..

قتيل الهوى .. وقتيل الشاطور

ما أكثر الشعراء والأدباء والروائيين والمصورين والموسيقيين الذين عبّروا — كل بأسلوبه — عن أشواق المحبين — ومعاناة الهائمين ، وجراح العشاق ، وقتلى الهوى ..

كل منا قرأ ، وشاهد ، وسمع .. وكل عصر له أدواته ، ولكل جيل أسلوبه ومقاييسه .. ولئن كان الإنسان — بفطرته وخامته البشرية — هو الإنسان ، فإن التعبير الصادق الصحيح الأمين عن مشاعره وأشواقه ومعاناته وجراحه ، بأى أداة من أدوات التعبير ، يبقى حيا نابضا ومؤثرا عبر السنين ، يتجاوز نطاق الزمان والمكان والبيئة .

خذ مثلا قول جرير :

إن العيون التى فى طَرْفها حَوَرٌ[1] قَتَلْنَا ثم لم يُحْيِينَ قَتْلانا
يَصْرَعْن ذا اللُّب حتى لا حراك به وهُن أَضعفُ خَلْق الله إنسانا[2]

القاتل هنا واهن صغير لا يقصد القتل ، ولا يتعمد الإساءة لكنه جميل ، نافذ ، فاتن .. رؤياه تصرع العاقل اللبيب ، فتخمد على الفور أنفاس فكره ، ويغشاه موت وماهو بالموت .. وإنما موت كل رغبة تتعلق بسواه ، وذبح كل هوى لايحقق رضاه ، وتقطيع أوصال كل عائق يحول دون مداه .. وتلك فتنة العين . أليست الفتنة أشد من القتل ؟

---

(١) الحور (بفتح الحاء والواو) : شدة بياض العين مع شدة سوادها وهو من علامات الحسن ، وقيل هو تشبيه بعيون الظباء .

(٢) اللب : العقل — إنسانا : يقصد إنسان العين أى الحدقة .

وربما يهون القتل .. فهو على الأقل قد يريح من عذاب اليأس ، وتباريح الانتظار غير الواثق ..

إذا جَنَّ ليلِي هام قلبى بِذِكْركم أنوحُ كما ناح الحَمامَ المطوَّقُ
وفوق سحاب يُمطر الهَمَّ والأسَى وتحتِي بحار بالجوَى تتدفق
سلُوا أُمَّ عمرٍو كيف بات أسيرُها تُفَكُّ الأسارىَ دونه وهو مُوثَقُ
فلا أنا مقتولٌ ، ففى الموت راحةٌ ولا أنا ممنونٌ عليه فيُعْتَقُ

هكذا قال البهاء زهير ..

وهكذا اعتاد الناس أن يقرأوا ويسمعوا ، وإن اختلفوا فى قبوله أو رفضه .. فى الميل إليه أو الانصراف عنه ..

ولكن ..

أن تَقْتل «الأنثى» كما يَقْتل السفاحون وعتاة المجرمين وقطاع الطرق .. أن تكتم الأنفاس ، وتفقد الإحساس ، فتعبىء الجثة فى أكياس .. أن تستخدم المسدس والسكين ، والشاطور[1] والسم اللعين .. وأن تفعل ذلك مع من ؟ مع زوجها ، والد أبنائها إن كان لديهما أبناء ، شريك العمر ، إن كان فى العمر بقية .. كل ذلك يلفت النظر ، ويثير الشك ، ويجلب الأسى ، ويدعو إلى الرثاء قبل البكاء .. ولا جديد تحت الشمس كما يقولون !

إنه حقا أمر يلفت النظر ، وإن كان لا يثير الذعر . فالمعروف لدى العامة والخاصة أن الإنسان ـ رجلا أو امرأة ـ قادر بطبعه وطبيعته على فعل الخير وإرادته ، وعلى صنع الشر وإرادته ، وأنه قادر فى جميع الأحوال على «فلسفة» وتبرير ما يريد وما يفعل ، على الأقل بينه وبين نفسه ، وإلا همد وخمد ، ولم يفعل .

---

(١) الشاطور الذى يشطر أى يقطع ويفصل إلى شطرين . والشاطر الذى يقطع الطريق .

هو أمر يلفت النظر إلى واجب ومسئولية المراجعة والتصحيح : مراجعة أسلوب الحياة والأحياء .. مراجعة منهج التربية والتنشئة .. مراجعة التصور فى فهم العلاقات والروابط .. مراجعة الادراك فى تناول الأشياء، واقتناء الأشياء ، والحرص على الأشياء ، والتضحية بالمبادىء والقيم من أجل الأشياء ، وكلها مادية وإلى فناء .. مراجعة العجز فى « استزراع » القيادة القدوة ، الصالحة المصلحة ، فى كل موقع وفى كل بناية : داخل البيت الصغير ، بيت الأسرة ، وفى البيت الكبير ، بيت الأمة .. ثم — وهو الأهم — مراجعة النفس الأمارة بالسوء — « إلا مارحم ربى » — وحسابها حسابا عسيرا غير يسير ، لا بمقاييس الهوى والنفاق والتبرير الأخرق والأنانية العمياء البلهاء ، وإنما بمقاييس الحق والعدل والشرف والعزة والحياء .. كما علّمنا الله .

وهو أمر لا يثير الذعر .. لثلاثة أسباب على الأقل :

لأن القتل والذبح وسفك الدماء معروف مشهور بين الناس منذ وُجد الناس .. وإن كان الرجل فى هذا — بحكم طبيعته وتكوينه — له التفوق والسبق . وليس بغريب أو جديد أن تَقْتل المرأة وتذبح وتكتم الأنفاس ، وكلنا يعرف ما كان من أمر شجرة الدر ، التى مَلَكَت وحكمت بعد أن كانت جارية محكومة ، وصارت سلطانة يدعو لها الخطباء على منابر مصر والشام فى خطبة كل جمعة : « واحفظ اللهم ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، ذات الحجاب الجميل (!) والسِّرّ الجليل » ثم قتلت زوجها — الملك العزيز أيبك — خنقا بالحمّام ، ويقال ضربا بالقبقاب .. ومع ذلك يقول عنها المؤرخون — بلا حياء — إنها « من ربات البر والإحسان ، من شهيرات الملكات فى الإسلام ، ذات إدارة وحزم وعقل ودهاء وبر ورأى ، بديعة الجمال ،

نالت من السعادة ما لم ينله أحد فى زمانها» ! وانتهى أمرها بالموت فى السجن .

ثانياً : لأن الغالبية العظمى من فتياتنا ونسائنا ـــ بحمد الله ـــ لا تنزع إلى الشر ، ولا تميل إلى القسوة ، ولا تشتهى سفك الدماء واستخدام الشاطور والقبقاب ! ورغم كل ما نشكو منه ـــ رجالا ونساء ـــ وما تسببه ضغوط الحياة وسخافات بعض الأحياء .. ورغم التشويش والهَرْج[1] الذى لا يتوقف ولا يخمد الصادر من كل الدنيا عن وسائل الإعلام والترفيه و «التثقيف» .. ورغم التوترات النفسية والذهنية والعصبية التى يولدها الصراع اليومى بين نهم التطلعات وضآلة الإمكانيات ، بل أحيانا فى غيبة الضروريات .. رغم ذلك كله وغيره ، مازالت الأسرة المصرية والعربية ـــ أزواجا وزوجات وأبناء ـــ تنشد السكينة ، وتتحرى الأمانة ، وتحرص على القيم ، وتتمسك بالعقيدة ، وتسعى إلى العيش الكريم العفيف .

وثالثا .. لأن الأمل فى الأجيال الجديدة لا ينقطع ، والرجاء فى صلاح الأبناء ـــ من البنين والبنات ـــ لن يخيب . فالحياة تمضى وسوف تستمر إلى الأجل المقدور . وحين أشار المولى عز وجل إلى ما يمكن أن يحدث داخل الأسرة من مصائب وكوارث بفعل الآباء أو الأبناء ، وحذّر من ذلك وأنذر ، فتح باب الأمل ، وبيّن طرائق الإصلاح ، وعلمنا أن ندقق فى إصدار الأحكام باجتناب التعميم . قال تعالى والخطاب للمؤمنين : ﴿**يا أيها الذين آمنوا إنّ من أزواجكم وأولادكم**

---

(١) الهرج (بفتح الهاء وسكون الراء) : الفتنة واختلاط الأمور . وفسّره النبى (ﷺ) فى أشراط الساعة بالقتْل .

عَدُوًّا لكم فاحْذَروهم ، وإن تعفُوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم﴾ . (التغابن) .

لا مجال للذعر إذن ..

وإن كان الأمر يثير الشك .. خاصة حين نسأل : لماذا تُقدم المرأة ، بكل هذا التدبير والإحكام والثبات ، على قتل زوجها وهو نائم أو قائم ، أو راكع ساجد ؟

دوافــع القتــل

الدوافع حقا كثيرة .. سياسية وعاطفية ومادية واجتماعية وأخلاقية وعقلية . ومن هنا ، لابد وأن يكون لعلماء السياسة والنفس والاقتصاد والاجتماع والتربية والتثقيف والتعليم ، رأى ودور ومسئولية ، فضلا عن رجال القضاء الذين يحكمون بين الناس بالعدل ، ويحفظون أمن المجتمع بهيبة القانون .

ومن بعيد نتابع نحن «القضية» القائمة .. قضية القتل المتكرر للأزواج بأيدى الزوجات الحسناوات ! ولا يزال فى الأمر شك حين نسأل : هل نعفى أنفسنا تماما من أية مسئولية ــ ولو مسئولية الصمت وكتمان صرخة التحذير ــ ونحن نتابع فى استرخاء وقائع الأحداث ومشاهد التحقيق والمحاكمة ؟ ألسنا نتوقع إذن مزيدا ومزيدا من حوادث القتل والخنق وسفك الدماء : للأزواج والزوجات ، للآباء والأبناء ؟

أكاد أقول : قد نكون شركاء بالفعل ، أو شركاء بالصمت . وفاعل الشر شرير ، والساكت عن الحق شيطان .

من مزايا هذا العصر وحسناته أن الاتصال بين البلاد والعباد فى كل الدنيا أصبح ميسورا متلاحقا فى كل وقت ، فترابطت حياة الشعوب وتداخلت ثقافاتها وازدادت معارفها وخبراتها على نحو لم يعرفه الآباء والأجداد .

ومن مزايا هذا العصر وسوءاته ، أن هذا الاتصال ذاته ــ المكثف والمتسارع ــ لم يكن خيرا كله ، بل داخله شر مقصود أو غير

مقصود . فهو كالخمر والميسر ﴿فيها إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمُهما أكبرُ من نفعهما﴾.. أو هو كطاقة الوقود : يحرك السيارة ويلوث الهواء !

فرض الاتصال بوسائله وأدواته ، على معظم شعوب العالم القديم ، مفاهيم ثقافات وفدت ، واقتحمت ، وأبهرت فى زهو واستعلاء ، وفيها هى أيضا ما يَسُر ، وما يضر .. مثلا ...

ثقافة مدنية غلابة !!

زعزعت ثقافة المدنية الغلابة المعاصرة دور الأب والأم ــ الزوج والزوجة ــ داخل الأسرة . وهى ثقافة (وإن شئت سمِّها فكر حضارة) جادة شرسة قوية الدعائم لأنها تستند إلى خزائن لا تنضب من الأموال والاستثمارات والعقول والسلاح وفائض الإنتاج . فأغرقت بطوفانها الإعلامى والإخبارى والترويحى عقولاً كانت آمنة مطمئنة ، وأفرغت فيها ــ عامدة متعمدة ــ مفاهيم ومسميات جديدة غريبة ، تحمل جراثيم أمراض نفسية وأخلاقية واجتماعية ، يحار أصحاب تلك الثقافات الآن فى مغالبتها ومقاومة أعراضها فى مجتمعاتهم .

وأصبح هنا الأب ــ الزوج ــ المسكين حائرا ، أو خائرا ، أو خاسرا .. فهو إن أراد المحافظة على قيم ومبادىء ومفاتيح الخير فى ثقافته الأصيلة السديدة الموروثة ، مع المواءمة بينها وبين حسنات الوافد الجديد واجتناب سوءاته ، ثم حاول أن يلزم بها نفسه وزوجه وأولاده ، أصابته الحيرة واعتراه العَنَت . وهو إن أفلح وأجاد ، فبتوفيق من الله ، وإن كَلَّ ومَلَّ ، خارت عزيمته واستسلم ، وإن هو غفل عن ذلك وتغاضى خسر خسرانا مبينا .

تضاءلت هَيْبة الأب ــ الزوج ــ وتأرجح فى التقدير والتقديس موقع الأم ــ الزوجة ــ وانتفشت رءوس الأبناء والحَفَدة . وامتلأت الأذهان بتطلعات وأوهام هى إلى السراب أقرب ، وسمومها المستخفية أخطر من لدغ العقرب !

وزعموا أن الحرية انفلات ، وأن المساواة مناطحة ، والتربية

الحديثة تدليل ، ومسايرة روح العصر تعامل هو أشبه بالنفاق والتدليس .

فى غمرة الخلط والاختلاط ، استثمرت ثقافة المدنية الغلابة المعاصرة ، إبهار المنجزات العلمية الحديثة المتلاحقة وتطبيقاتها التكنولوجية غير المحدودة . فأوحت إلى الناس أن «العلم» هو البداية والمنتهى ، وهو الوسيلة والغاية ، وهو المنقذ من الضلال ، والعاصم من الضياع . والعلم فى مفهومها هو العلم المادى البحت ، الذى يخضع للتجربة ويُدرك بالحواس . ومادامت الطاقات الروحية لا تندرج فى تصنيف هذا العلم ، ولا تقاس بمقاييس هذا العلم ، ولا تخضع لتجارب ذاك العلم ، فلا مكان لها ولا قيمة فى دنيا العلوم . وخلف هذا الوسواس الخنّاس، انساق كثير من الناس .

ولا أحد ــ عاقل منصف ــ ينكر فضل العلم والبحث والدراسة والتجريب ، فى أمور المادة ومكوناتها وكشف أسرارها واستغلال قدراتها وطاقاتها . وهذا متاح لكل شعب ، ولكل جيل ، وشاركت فيه وتنميته كل حضارة على امتداد السنين . لكن العلم ليس إلها للناس يُعبد ، وقد يكون أداة ــ فى بعض الظروف ــ تحطم وتدمر وتَقهر . والعلم المادى وحده لن يحل جميع مشكلات البشر ، ولن يرفع وحده الظلم ويُبدد الظلمات من دنيا الناس ، ولن يمنع وحده الزوجات من قتل الأزواج ، أو يلزم الأزواج بحسن معاملة الزوجات !

إن الرجل المتفوق فى باب من أبواب العلوم المدنية الحديثة قد يكون فى داخله تافها أو مغرورا أو أنانياً كارها حقودا ، ناقما متسيدا على الزوجة ، مُجحفا بحقوق الأبناء . وقد تجد رجلا حظه قليل من علوم المادة وثقافة المدينة ، لكنه متآلف مع نفسه ، مألوف عند أهله

وجيرانه ، يشع الخير والسكينة أينما حل وحيث أقام . وكذلك قد تجد المرأة فى مثل هذا أو على غرار ذاك .

ثم ..

أليس مثيرا للشك فى تضخم قيمة الحضارة المادية الحديثة الغلابة المعاصرة . ودون إغفال لمقدار ما تقدمه من علوم وفنون وإنتاج ، أن الناس فى كل مكان «مشتاقون» إلى رؤية الرجل العفيف الأمين النظيف اليد والقلب واللسان ، وهو يطفو على السطح ، وكأنه «المهدى المنتظر» ، يضىء ، ويؤثر ، ويقود ، ويُقتدى به فى العلم والعمل والثقافة والذوق والعاطفة ، وفى كل سلوك سوى أو مسلك للحياة ؟! أليس الأمر كذلك بالنسبة للمرأة أو الفتاة ؟ ..

إن متابعة حوادث القتل وسفك الدماء ، أيا كانت مقدماتها ودوافعها تجلب الأسى عند من يطالع ويستمع ، وعند من يتأمل ويدقق ..

فى غمرة الضجيج المهلك ، ومع إندفاع الجرى اللاهث لاقتناص كل ما هو مادى أو حسى ، صحيح أم مزيف ، لم يعد لكثير من النساء — والرجال أيضا — ذلك الصديق الأليف ، والأنيس الظريف ، والجليس الموجِّه الشريف : الكتاب الجاد . تتزايد أعداد المتعلمات والخريجات بالآلاف عاما بعد عام ، وتتضاعف المؤسسات التعليمية جيلا بعد جيل . ويشكو البعض من ضخامة الكَم مع ضآلة الكيف . وبعيدا عن التعليم المنهجى المفروض ، ماذا تقرأ الفتاة ؟ ماذا تطالع الزوجة ؟ كيف تتثقف الأم ؟ من الصحف السيارة ؟ من الإذاعة المرئية أو المشاهدة (التليفزيون) ؟ من السينما والمسرح ؟ .. ويا للأسى والأسف ! ضحالة وركاكة وسطحية مرضية ، وغثاء متدنٍ إلا فيما ندر ..

هدف المرأة من الحيـاة

ليس لكثير من الزوجات والوالدات والفتيات هدف فى الحياة واضح المعالم ، محسوب الخطوات ، متوافق مع القدرات والطاقات والإمكانيات .. ومن يضمن السلامة لمن تسير على غير هدى ، وتتبع كل ناعق ، وتتأرجح فى مهب الريح ؟

ليس للكثيرات قدوة حسنة تُحْتَذَىَ أو نموذج طيب يُنتقىَ .. إذ تكاد الصور والأشكال الشائهة والشائنة لفريق من الممثلين والممثلات ، والمزيفين والمزيفات ، والمتسلقين والمتسلقات هى الغالبة الطاغية . تطل صباحا ومساء فى الشوارع والأندية ومن خلال الصحف ووسائل « التثقيف » والإعلام .

ليس للكثيرات من الفتيات والزوجات قدرة على الصبر الجميل ، والحب الجميل ، والعطاء الجميل ، وحتى : الحزن الجميل . الصبر الجميل : الذى يرفع من قدرة التحمل ، ويحول دون الانهيار والتمزق ، ولا يفتقد الرجاء والأمل ، ولا ينزع حجاب المستور ، فلا يحضّ على القتل بالشاطور !

والحب الجميل : الذى يُشعر بتحمل المسئولية ، ويُلزم بأداء الواجب . الذى يُبرز الحسنات ، ويوارى السوءات . الذى يربو وينمو ويسمو . فيضيف طاقة ، ويوثق العلاقة ، ويضيف للحياة معنى ، وللعمر عمقا وإتساعا .

والعطاء الجميل : الذى يخفف من حدة ألأنانية ، ويلامس فى

النفس منابع الرحمة والخير ، لا ينتظر جزاء ولا شكورا ، ولا يزهو مغرورا .

والحزن الجميل : الذى يغالب الفزع والجزع ، ولا يدفع أو ينـدفع إلى اليأس والبؤس . الذى لا يفرط فى أمانة ، ولا يخون عهدا ، ويقف ردءا للبصيرة فلا يستدرجها الغضب الأحمق إلى الوقوع فى المحظور ، وإضرام النار فى الصدور .

ليس للكثيرات من الزوجات والفتيات همة شديدة المراس ، طويلة النفس ، تنشط للجد وتعاف الكسل . وتدرك أن الحياة — وكل عناصر الكون — جادة لا تعرف الهزل . وهى تتطلب عظيم الجِدّ فى الزمن النكد .

قديما : كانت الفتاة تتعلم منذ الصغَر أن المرأة تجوع ولا تأكل بثديها . وكانت تعرف المعنى والمغزى : أن المرأة الشريفة العفيفة لا ترضى لنفسها أن تتكسب من إرضاع أطفال الأخريات ، حتى وإن جاعت واحتاجت . فهِمَّتها تصون كرامتها ، وصبرها الجاد على الفاقة أيسر كثيرا من صبرها على الهوان . فكيف بمن لا تبالى أن تأكل أو تشرب وتلبس وتتزين ، بثديها وغير ثديها ؟!

مساوىء الترف

ليس للكثيرات من الزوجات والفتيات إدراك صحيح واعٍ بأخطار الترف ، ولمساوىء الترف ، وللكوارث التي يمكن أن يجرجر إليها الترف ..

والترف ليس المال ولا الثراء ولا الغنى . فالمال مطلوب ، والثراء مرغوب ، والغنى لازم (غنى النفس أو غنى العلم أو غنى المال أو غنى المادة والقوة ..) لأن الفقر ممقوت ، والتسول مذموم ، والعيش على المعونات عالة تمحق الكرامة . والمال النظيف الصالح نعمة للإنسان النظيف الصالح .. رجلا أو امرأة . أما الترف : فهو طغيان النعمة . والطغيان تجاوُز الحد ، مثلما يطغى البحر أى ترتفع أمواجه وتهيج .

وطغيان النعمة يأتى عادة من جانبين أو يدخل على تقدير المرء من بابين : عند المحروم منها من باب إذلال النفس لغير خالقها مظنة الفوز بها ؛ وعند القابض عليها من باب شح النفس خشية النقص فيها . الأول : تائه شارد متبرم قلق ، لا يبالى أن يباع ويُشترى — جسدا وعقلا وإرادة — حتى ينال ما يشتهى . والثانى : ممسك كسول مرتاب متكبر ، لا يبالى أن يمزق روابط المودّة والقُربى ، فهو لايرى إلا ذاته ، ولا يتبع غير هواه .

خــبرة النســاء قليلة

ليس لكثير من الفتيات والزوجات حصيلة كافية من الخبرة المختزنة ، تساعدهن على التكيف السريع السديد مع المواقف . فالتغير من سنة الحياة ، والأحوال تتبدل ، والأرزاق تتسع وتضيق ، والنفوس تنقبض وتنبسط ، والعواطف تبرد وتتقد ، والمواقع تعلو وتهبط ، والعلاقات تقوى وتضعف ، والجهود تنجح وتفشل ، والأمور تتأزم وتنفرج ، والحظوظ تُقْبل وتُدبر .. فهل من المعقول والمقبول أن يواجه المرء كل هذا التغيير المفاجيء والمتلاحق وهو كما هو (أو وهى كما هى) دون تغير فى الإدراك والفهم ، وفى إيقاع التحرك والتناول ؟ وهل هو (أو هى) مستعد وقادر بالفعل على التقبل والمواجهة ، والتعامل الرشيد مع المتغيرات دون أن يفقد اتزانه أو يتزلزل كيانه ؟

حين نراجع أنفسنا ونحن نتأمل ونطالع الأحداث وندقق ، لابد وأن يسأل أحدنا : من الجانى ومن الضحية ؟ من المذنب ومن البرىء ؟

من هو ؟ .. من هى ؟ .. من أولئك الذين أشاعوا بين الناس تيار الكراهية ، ونثروا بذور البغض ، فأثمرت سموم التربص والتلصص والشحناء والسخط ؟

من هو ؟ .. من هى ؟ .. من أولئك الذين حبسوا «المياه» أن تبلغ جذور أشجار الحب ، لترتوى وتُزهر ، فيغشى أريجها الأنفاس ، وينفذ عطرها إلى القلوب ، فينتعش الأزواج والزوجات ، ويسعد الآباء والأبناء ؟

حينما تصبح العصا أو السكين والشاطور والغدارة (المسدس) أداة الفهم والتفاهم وحسم الخلاف بين الزوجات والأزواج .. يموت على الفور أجمل ما فى الحياة : الحب !

ولن يجد من يبكى عليه .. حيث لاينفع البكاء .

من مذكرات «عشماوى» الفرنسى !

الجريمة فى كل مكان على الأرض هى الجريمة .. لأن الإنسان هو الإنسان .. سواء سكن كهفاً أو أقام فى أعلى ناطحة سحاب .

المقصود بالجريمة هنا هى قتل الإنسان بتدبير وعَمْد لأخيه الإنسان ، حين يكون القاتل هو القاضى والحَكَم ، سواء تم التنفيذ بيده أو بيد من يستأجره أو يأتمر بأمره .

وفى غيبة القانون وعدله وهيبته ــ قانون القبيلة أو الشريعة أو الدولة ــ يتحول معظم الناس وربما كلهم إلى وحوش ضارية شرسة . والدول التى ألغت قانون القصاص الذى يقضى بأن النفْس بالنفْس ومن قتل يُقتل ، تعانى اليوم من تفشى الجرائم وارتفاع معدلات سفك الدماء والعدوان البشع على الأرواح والأعراض . وتتزايد فيها أصوات المطالبين بإعادة تطبيق عقوبة الإعدام حماية لأمن الناس والمجتمع .

من بين المطالبين بذلك ، رجل قتـل وحده بيديه (٣٢٢) ثلاثمائة واثنين وعشرين شخصا ــ رجلا وامرأة ــ ومع ذلك لا يعتبر قاتلا أو مجرما ! بل هو «موظف» أمين كان يؤدى واجبه ، أو كما يقول : «لست أشك أبدا فى أننى كنت شخصا نافعا» .

«أندريه أُوبرخت» آخر «العشماويين» الفرنسيين ، أى الذين ينفذون عقوبة الإعدام ، قبل أن تلغى فرنسا تلك العقوبة فى السبعينات الماضية .

صدر له هذا العام كتاب يحوى ذكرياته طوال فترة عمله الذى بدأه عام ١٩٣٢ . وفيه يأسف بشدة لأنه اضطر إلى تنفيذ حكم الإعدام ــ بالمقصلة ــ فى عدد كبير من النساء .

وأول من أعدمهن «اليزابيث لامولى» عام ١٩٤١ ، فى مدينة «بوردو» الفرنسية . وهى سيدة مارست القتل أكثر من مرة ، وقد ابتدأت بزوجها . والدافع كما قالت : «لكى أعيش حياتى» ! اشترك معها عشيقها فى قتل الزوج ، لكنه أفلت من قبضة العدالة ، حيث كان لها فى الواقع عشاق كثيرون !

كان أسلوبها المفضل : استخدام السم . تضعه خفية فى الحساء ، لمن تمل صحبته من هؤلاء . ومن عجب أن عددا كبيرا من رجال أسرتها « تجرع » هذا الحساء .. يبدو أنه كان « لذيذاً » !

وفى المحكمة ، كان أخطر وأهم الذين شهدوا ضدها : أمها .. وقد وجَّهت إليها اللوم أمام الجميع .

يقول «اندريه» :

عندما أيقظوها فى الصباح الباكر وشاهدت أمامها ــ فى الزنزانة ــ الحراس ووكيل النائب العام ، صرخت صرخة واحدة مدوية مفزعة . ثم لاذت بالصمت . وهنا اقترب منها الوكيل وقال :

ــ تشجعى . فإن التماسك بطلب العفو قد رُفض .

وبدا أنها لم تستوعب الموقف على حقيقته لبضع لحظات . إذ جلست على حافة سريرها وراحت تحملق بنظرات زائغة فى وجوه الواقفين أمامها واحدا واحدا ، ثم فى حركات الحراس خارج الباب .. وفجأة .. أدركت الحقيقة ! فقالت بصوت متقطع :

ــ أتريد أن تقول إن ..

ــ للأسف ياسيدتى ! كونى شجاعة واستعدى للموت ! الآن ، أصبح الموقف واضحاً تماماً . فصرخت وانتفضت فى قفزة لا شعورية

ألصقتها متكورة فى ركن الزنزانة، وكأنها تريد أن تهرب .. وأين المفر؟!

اقترب منها الحراس وبعض رجال الشرطة يحاولون انتزاعها ، فأنشبت أظافرها فى أيديهم واصابتهما بجراح ، وهى تطلق صرخات مدوية متلاحقة بكل ما لديها من قوة صوتية وطاقة جسدية . وأخذت تبكى ، وتولول ، وأسنانها تصطك ، وتعوى ، وتتوسل ، وتُقْسم .. واستطاع القسيس ــ وكان يملك قدرا كبيرا من الوداعة والطيبة وهدوء النفْس ــ استطاع أن يخفف قليلا من ثورتها . فأطرقت وهى تنصت إلى صلواته ، وجسمها ينتفض ، وتئن ، فحملوها قسرا وأجلسوها على مقعد وهى فى إنهيار تام ، وأمسك بها اثنتان من الحارسات . فلما انتهى القسيس من مهمته ، حاولت الحارسات مساعدتها على «قضاء الحاجة» كما هو متبع ، لكنها رفضت فى إصرار وعنف .

عند المقصلة ، كانت المهمة أصعب خاصة بعد تمزيق قميصها والرداء ، وتقييد يديها ورجليها . فالتعليمات تقضى بإحكام القيد على الأطراف عارية ، وإمساكها بشدة فى هذه المرحلة حتى لا تسقط على الأرض . ثم تقدم مساعد «اندريه» وقص شعر رأسها من الخلف ، وقص إستدارة الرداء حول الرقبة ، والرأس مرتكز على قاعدة المقصلة فى موضعه المحدد تماماً .

طوال تلك المرحلة التى تستغرق دقائق ولكن ثقلها يفوق الساعات ، لم تكفّ السيدة لحظة عن الصراخ والبكاء . ثم فجأة .. طغى على صوتها دوىّ ارتطام مكتوم .. وساد الصمت المطبق .. يقول «اندريه» : لم أعرف فى حياتى مطلقا وقع مثل هذا الصمت

المثير . وتجمدنا جميعا كل فى مكانه ، كأننا عاجزون تماما عن الحركة ، أو كأننا نخشى أن يعود الصراخ المفزع من جديد ..» !

يتابع «اندريه أُوبرخت» ذكرياته ..

المرة الثانية التى كان عليه فيها أن ينفذ حكم الإعدام فى سيدة (بفرنسا) ، كانت عام ١٩٤٢ . اشتركت هذه المرأة مع زوجها فى قتل ابنتهما الشابة «ليليان» . فقد ضرباها بعصا ضربا مبرحا ، ثم علقاها فى وضع مقلوب بربط رجليها بأعلى حافة باب داخلى بحيث يتدلى الرأس إلى أسفل .. وتركاها هكذا حتى ماتت .. ويالوحشية بعض الناس !!! وحكمت عليهما المحكمة الفرنسية بالإعدام معاً .

عند تنفيذ العقوبة ، استسلم الرجل ــ الأب القاتل ــ ولم يُبد أية مقاومة ، وطلب فقط أن تُغطى عيناه حتى لا يرى المقصلة ! أنانية بشعة : فهو يجزع من رؤية المقصلة التى ستفصل رأسه ، ولم يفزع من رؤية ابنته التى عذبها ثم ربطها بيديه أعلى الباب وتركها يومين حتى ماتت !! وأى قلب للأم هذه ؟! وماذا فعلت بها « حضارة » قومها التى تفاخر الدنيا بمنجزاتها ؟ ..

يقول « اندريه » :

«إننى أشعر فى داخلى بصدمة عنيفة عندما أُقدم على تنفيذ حكم الإعدام فى امرأة . كيف يتسنى للمرأة التى تتولد منها الحياة ، وتهفو إليها قلوب الرجال ، وفى حماها يجد الأبناء الرجمة والحنان ، أن تزهق بيديها روحا أو تقتل بيديها إنسانا ولا تهتز ؟» ..

كانت هذه الزوجة ــ الأم ! ــ فى نحو الثلاثين من عمرها ، مقبولة الشكل ، وكانت تخضع لسيطرة زوجها الذى كان لا يحب إبنته ويعاملها بقسوة بالغة .

يقول «وفى رأيى ــ دون أن أدعى التفلسف أو التحيز ــ أن المقصلة (أو أى أداة للإعدام) من اختصاص الرجال . (أى أن جريمة القتل التى تُفضى إلى القصاص والإعدام لا تتوافق مع طبيعة المرأة وصفاتها) . ودعونى أكشف لكم سرا فنيا عن المقصلة : إنها بالفعل مصممة للرجال . وأثناء عملى ، كنت أجد صعوبة فى وضع المرأة على المقصلة بطريقة محكمة . فجسم المرأة عادة لين ، ومستدير من كل أجزائه .

وسر آخر : فأنا بطبيعتى أحب النساء كثيرا ، وبصراحة ، لن تتخيلوا مشاعرى ، حين أرفع الغطاء الذى يحجب جسم المرأة تحت المقصلة ، ثم أنحنى لأرفعها ، وبدلا من أن أشاهد وجها يحمل عينين وأنفا وشفتين ، أرى مكانه فقط .. دائرة من الدم !!

عندما انحنيت فجأة لأربط قدميها وبسرعة ــ حتى لا تلمح تلك السيدة على وجهى أثر ما يدور فى رأسى من هذه الأفكار والمشاعر ، اعتدلت قليلا ثم قالت لى فى ثبات مدهش :

ــ لاتخش شيئا ياسيدى ! فليس لدى الرغبة فى إنقاذ نفسى .

وبدون أية صرخة ، ولا دمعة بكاء واحدة ، غادرت «جورجيت مونيرو» هذا العالم فى لحظة ، إلى عالم آخر أرجو أن يكون لها الأفضل» .

يختم «أندريه» كتابه المثير للمشاعر والتصورات والأفكار بهذه العبارات :

«عند صدور هذا الكتاب ، تكون عقوبة الإعدام مازالت ملغاة فى فرنسا . وكثيرا ما سألنى الناس : ألم تشعر قط بتأنيب الضمير بسبب

عملك ؟ وأقول بحق : لست آسفا على شيء فَعَلته . وفى يقينى أننى كنت شخصا نافعا . هناك إعدام سياسى بغيض . لكننى ـــ بحمد الله ـــ لم أشترك قط فى تنفيذه .

وإذا كانت عقوبة الإعدام ملغاة الآن فى فرنسا وفى بعض الدول ، بحجة أنها قاسية ولا تتفق مع التحضر ، أو خشية أن تستغل فى خدمة الطغاة ، فهذا كله لا يعنى أنها غالبا ستعود وتُطبق . وبعض الولايات الأمريكية التى سبق أن ألغتها عادت اليوم وقررتها وتنفذها . إن المجتمعات كلها اليوم تعانى من أزمات ومشكلات عنيفة ضاغطة . وعقوبة الإعدام تعبر فى وقت واحد عن القوة والردع ، لا ينفصل أحدهما أبدا عن الآخر ، وهما ضروريان ولا غنى عنهما لضبط اللا شعور الجماعى . إن الفرد فى أى مجتمع محتاج إلى الشعور بالأمن . وفى وجود عقوبة الاعدام ، على قسوتها ، يتحقق قدر كبير من الطمأنينة . فهى تشعر الفرد العادى المسالم أنها تخيف الآخرين المعتدين ، فهى إذن تحميه . وفى نفس الوقت ، لا شك أن صدى الرباط المتواصل عبر القرون بين الأجيال لمعنى القصاص وأثره ، يطن بصوت غير مسموع فى داخله ، وتلك وقاية غير منظورة ، مثل الغناء للطفل الذى يخاف ظلام الليل ..

عندما نتسامح ونترك القتلة ينعمون ويتمتعون بالحياة ، فإنهم سوف يجلبون على البشرية ليلا مظلما عاتيا رهيبا . وباسم الأبرياء والضحايا ، لابد من رادع ، من وجود عقوبة الإعدام. ومن هنا ، لا أتردد لحظة فى أن أقول لأفراد مملكة الظلام (أى المجرمين والقتلة) إن حياتى لم تكن عبثا ، وقد كنت أمثل قرونا عديدة من الانضباط والتنظيم الإنسانى » .

الإنسـان هو الإنسـان

الإنسان هو الإنسان .. لابد من انضباطه بالأخلاق والذوق ، ولابد من تنويره بالثقافة والعلم . ولا مفر من كبح شروره بالقانون المهاب . ولا يجب إغفال قيمة تنشيط طاقاته الروحية لتيسير ضبطه واستنارته وتهذيبه والسمو بإنسانيته حين يخشى الله .

ولن تختفى من دنيا الناس الجريمة ، ولن ينقرض القتلة والقاتلات ، ولا المذنبون والمذنبات .. ولن يحول تطور العلم وإنجازاته ، ولا تطور التكنولوجيا وصناعاتها ، بين الإنسان والجريمة ، بين الإنسان والعدوان .. فمن الناس اليوم من يسرق ويغتصب ويقتل باستخدام الأجهزة والأسلحة الالكترونية والليزرية (التى تعمل بأشعة ليزر الحديثة) ، ومن الناس اليوم ـــ وغدا وبعد غد ـــ من يدمر ويبيد جماعات وشعوبا بأكملها بأسلحة الذرّة وغواصات الطاقة النووية وصواريخ الفضاء .. والأفظع من ذلك ، أن يضع تلك الجماعات والشعوب فى حالة رعب دائم وفزع من استخدام تلك الأسلحة الحديثة ، وما خفى منها كان أعظم ، وما سيحدث أقوى وأفتك .

وحتى لانميل كل الميل فى تناولنا للموضوع إلى جانب النساء ، هناك الكثير الذى يقال عن تجاوزات الرجال . وكما قال «إندريه أوبرخت» آنفا : إن المقصلة ـــ أو عقوبة الإعدام ـــ هى أنسب للرجال ، لأنهم أحيانا أكثر حماقة وشراسة ، وهم أقوى على القتل وسفك الدماء .. فيكفى أن نشير إلى بعض الحوادث ذات الدلالة ، لعلها تلفت النظر ، وتدعونا إلى التأمل والتفكير . فيما يُصلح أو يردع . فالعاقل من اتعظ بغيره ...

مـــن القاتـــل .. ؟

هذه الجريمة أفزعت الولايات المتحدة كلها .. من المحيط إلى المحيط .. وثار حولها جدل كبير فى بلد الثراء ، والعلم والتربية الحديثة ، والقوة ..

وتساءل الناس ــ ومازالوا ، حيث لم تكن هذه آخر الجرائم المثيرة البشعة ــ لفترة طويلة : من الجانى ؟

ــ الأم التى أفرطت فى تدليل ابنها ؟

ــ الثراء « الفاحش » الذى قد يُغرى بارتكاب الفواحش ؟

ــ أسلوب التربية الحديثة فى البيت .. وفى المدرسة .. وفى شوارع المدينة ؟

ــ التفكك الأسرى والنظرة الخاطئة ــ السائدة ــ لمفهوم الأسرة ؟

ـ وسائل الإعلام والتى قد تتحول إلى وسائل تعتيم وإظلام للذهن والروح ؟ أم ماذا ؟ .. وماذا ؟ .. ولماذا ؟! وقالوا فى أوربا عن هذه « الجريمة » بالتحديد : « تلك مأساة مفزعة ، أكثر إثارة من المسلسل الأمريكى Dynastie المشهور أى العائلة أو الأسرة » . وهى تصلح لأن تكون صورة معبرة عن تاريخ التزاوج بين الدولار ... والدم .

« ستيفين » شاب يافع من عائة « بنسون » . وهذه العائلة ـ أسرة واحدة ــ تملك شركة ضخمة للتبغ (السجائر) تُقدر بنحو ٥٠٠ مليون دولار وأسمها : « لانكاستر لأوراق التبغ » .

فى الأصل .. لم تكن هذه العائلة شيئا مذكورا .. فمنذ نحو ستين سنة كان « هارى هتشكوك » جد الأسرة رجلا معدما . لكنه خلال ما

يقرب من خمسة وعشرين سنة ، استطاع أن يؤسس ويمتلك أكبر شركة فى الولايات المتحدة لاستيراد أوراق التبغ .

فى عام ١٩٦٥ ، بلغ «هارى» سن الثامنة والستين ، وقد نال منه الكد والجهد ، فقرر أن يعتزل العمل . وقبل أن يغادر باب مؤسسته الضخمة لآخر مرة ، وبلا عودة ، وقف بجوار ابنته ووريثته الوحيدة «مارجريت» وقال كلمة جديرة بأن يدونها مؤرخ ناسك متصوف . قال : «المال لايصنع السعادة» ! ثم اعتزل هاربا إلى أحد الأديرة .

تربعت «مارجريت» على مقعدها المتين الوثير فى قمة المؤسسة . وهى سيدة جميلة ، شقراء ، رشيقة ، أنيقة ، تهوى الرياضة ، مثلما هَوَت فى غرام «إدوارد بنسون» الذى كان يعمل فى سوق المال ، ثم تولى الاشراف على أموال «هارى» بعد أن تزوج ابنته «مارجريت» .

أنجبا طفلين : «ستيفين» وشقيقته «كارول» وعاشوا معا فى بيت — أو قصر — الأسرة .. المكون من نحو عشرين حجرة بولاية بنسيلفانيا . أدوات الحمام والصنابير (الحنفيات) من الذهب عيار ١٤ ، فى الحديقة حمام سباحة بالمقاييس الأوليمبية ، وجراج للسيارات من ثلاثة طوابق مخصص لسيارات «المدام» وحدها ، حيث تهوى — أيضا ! — جمعها وانتقاءها بمواصفات خاصة .. هذا بخلاف باقى سيارات الأسرة ! والحديقة على الطراز الفرنسى ، يشرف عليها ويزينها ويرعاها عشرون بستانيا .. فقط !

كان من الطبيعى أن يزود الطفلان — الولد والبنت — بكل أسباب الدعة والتنعيم .. عرائس وألعاب تصنع خصيصا لهما .. أدوات وأجهزة للتسلية والترفيه .. مربيات أجنبيات .. سائقان لكل منهما .. ملابس من أوربا .. (دون مساس بالنزعة الوطنية وتشجيع

المنتجات المحلية !) .. وأموال تحت تصرفهما فى كل وقت .. وعندما رغب الطفلان ــ الولد والبنت ــ فى استخدام الهوائى المعلق بين شجرتين فى الحديقة الفسيحة (وهو شائع عند البعض للاسترخاء المتأرجح) أقامت الأسرة ــ أى الأبوان ــ مصعدا كهربائيا ــ حقيقة لا مبالغة ! ــ بجوار الشجرة حتى لا «يتعب» الطفلان أو تتسلخ عند القفز أرجلهما !! فلوس !

ومع كل ذلك .. لا يكاد أحد الطفلين ، وبعد أن كبرا وبلغا مرحلة الشباب ، يذكر أنه التقى بوالديه فى البيت .. بيت الأسرة ، أو جلس معهما كما يجلس كل الأبناء فى الدنيا مع الآباء .. فقد كانا مشغولين على الدوام ، ولهما حياتهما الخاصة . يذكران فقط أنهما كثيرا ما سمعا هذه العبارة : «إن كل الثروة التى نملكها هى لكما ، وما تدخرانه من الإنفاق هو زيادة فى أموالكما» ! وهذا ما حفظته البنت ونسيه الولد ، لأنه الأكثر تدليلا .

فى مرحلة الدراسة ، كان مستواهما متوسطا وأحيانا أقل . ولما كانت «كارول» جميلة ، وثرية ، فسرعان ما تزوجت وأنجبت بدورها طفلين ، ثم طُلقت . لأنها ــ والحق يقال ــ حاولت بإرادة واعية أن تعيش حياة عادية ، دون نظر إلى ثراء أسرتها الضخم ، فلما انفصلت عن زوجها ، عادت إلى الإلتحاق بالجامعة ، وتولت مسئولية تربية طفليها فى مسكن بسيط ، واستخدمت سيارة قديمة مستعملة ، بعد أن التحقت بوظيفة مخرجة تليفزيونية بمحطة «بروكلين» المحلية ، وارتدت الملابس البسيطة «الجينز» مثل كل الشباب ، ولم يعلم أحد مطلقا فى محطة التليفزيون شيئاً عن ثراء أهلها .

أما الأخ ـــ أخوها ـــ «ستيفين» فلم يكن على هذا النحو . فبعد أن فشل فى دراسته الجامعية منذ السنة الأولى بها ، اتجه إلى العمل الحر . اقترض مبلغا من أبيه ليعمل مصوِّرا ، وفشل . فآثر أن يجد عزاء فى الزواج . وكانت هدية الأسرة بهذه المناسبة : قطعة من ممتلكات الأسرة على مقربة من بيتها ، فيها مسكن جميل وحديقة . وألحقه الأب بالعمل معه ، ولكن بعد فترة وجيزة ، اكتشف أنه غير كفء ، فطرده . فشل جديد . لكنه لم يكف عن الإنفاق ببذخ فوق قدراته .

إذ كانت أمه تمده دائما بالمال . وتحول البذخ إلى سفاهة : فله مائدة محجوزة على الدوام فى أكثر من مطعم فاخر بالمدينة ، يغشاها فى أى وقت هو ورفاقه أو رفيقاته وكلهم صحبة سوء . وطالما شكى إلى أصحابه أنه يريد أن يفعل شيئا يلفت إليه نظر أبويه ، فأبوه لا يكاد يشعر بوجوده ، وأمه لاتمنحه إلا المال . ثم نجح فى شئ واحد : إصلاح أجهزة التليفزيون ، بدقة ، وبسرعة مدهشة !

ثم فشل جديد .. هذه المرة مع زوجته . فقد «اكتشفت» أنه فى مستوى غير لائق .. فى التفكير ، والملبس ، واختيار الأصدقاء ، وفى العلاقات والروابط . فافترقا بالطلاق . وكافأته أسرته ـــ الأب والأم ـــ بمنحه قطعة أرض جديدة وبيت جديد ، وهذه المرة فى مواجهة بيتهما أو قصرهما . ثم تزوج مرة أخرى وأنجب ثلاثة أطفال .

فى تلك الفترة ، أعلنت أمه «مارجاريت» أنها تبنت ولدا اسمه «سكوت» . والتبنى هناك مباح ويرتب القانون للأبناء بالتبنى حقوقا كثيرة وفيها الميراث . هنا شعر «ستيفين» بالغيرة الشديدة . وبدأ يتحول إلى السلوك العدوانى ، والشراسة ، والكبرياء الجوفاء ، وبذل

المحاولة تلو المحاولة لكى يحقق نجاحا ، أى نجاح ، ويتفوق فى الحياة مثل أبيه . لكن الأب أثر السلامة ، ومات بالسرطان عام ١٩٨٠ . فشعر « ستيفين » ــ كما قال من بعد ــ بالارتياح ، إذ تخلص من عائق كان يحول بينه وبين الثراء ، وكان مجرد وجوده دائما يذكره بالفشل . فأسرع بمغادرة المدينة إلى مدينة أخرى ، أنشأ بها شركة منافسة لشركة أبيه وأمه ، لاستيراد التبغ ، أفلست بعد عام واحد !

أحس أنه انهزم ، لكنه لم يتحطم . فقد جاءه انتصار « سلبى » لم يسع إليه ولم يشارك فى صنعه . فقد ألقى القبض على أخيه ــ بالتبنى ــ « سكوت » بتهمة القيادة السريعة للسيارة ، وبتهمة بيع المخدرات !

فهو شاب ــ ١٩ سنة ــ يعيش فى كنف الأم « مارجاريت » التى انتقلت بعد موت زوجها إلى قصر فاخر فى فلوريدا مدينة أصحاب الملايين والبلايين ، ويحب قيادة السيارات الفارهة ، وحياة اللهو ، وصحبة الفتيات العابثات . وحاولت « مارجريت » أن تهيئه لاحتراف لعبة التنس ، لكنه فشل ، أو بالأحرى لم يهتم .. وعلى إيه ؟! بعد المحاكمة دخل « سكوت » مصحة للأمراض النفسية والعصبية ، خرج منها بسلوك دائم للعنف وعدم التروى والانضباط ، مما أفزع الأسرة .

بعد موت الأب ، انفرد « ستيفين » بأمه ، يعاملها بقسوة ، وكما قالوا : كأنه ينتقم من أبيه فى شخصها . كان يمنعها من رؤية أطفاله الثلاثة . ولا يكف عن طلب المال منها . بل كان يرغمها على توقيع الشيكات ، ثم راح يوقع هو مقلدا إمضاءها وهى تعلم ولا تعترض . فإذا حاولت أن تمتنع ، صاح فيها بلا خجل أو حياء انه يستقطع جزءا من ميراثه منها مقدما !

ولم تكن هذه هى كل المأساة ...

لقد بلغه أن أمه سجلت فى وصيتها أن يأخذ كل واحد من أبنائها الثلاثة (كارول وستيفين وسكوت) عشرة ملايين دولار . ثم سمعها مصادفة ذات ليلة ، وهى تتحدث مع محاميها فى الهاتف (التليفون) بشأن تعديل فى هذه الوصية . فظن أنها تريد إخراجه منها ، أو ربما خرج بنصيب الأرنب أو الكتكوت .. لا الأسد !

هنا بدأت تحدث أشياء غريبة فى بيت «مارجريت» .. حين يأتى «ستيفين» يحضر معه كمية من المتفجرات (يديناميت) يلهو بتفجيرها فى طرف حديقة القصر ، وهو يضحك بصوت يسمعه عمال الحديقة ويدهشون له .

الآن .. أصبح الخطر حقيقة . وتساءلت «مارجريت» : «هل يفكر ابنها فى التخلص منها لكى يحصل على وفرة من الأموال ؟» . ونقلت هواجسها إلى إبنتها «كارول» ، حين قدمت لتقضى معها بضعة أيام فى فلوريدا .

فى صباح يوم التاسع من يوليو ١٩٨٥ ، طلب «ستيفين» من أمه مفاتيح سيارتها العائلية «الشيفروليه» الجديدة بحجة أنه ذاهب لشراء حلوى وفطائر للأسرة . فأذعنت . ثم انطلق بالسيارة وغاب نحو ساعة ونصف قبل أن يعود . فى تلك الفترة كان قد وضع عبوة من المتفجرات (الديناميت) بطريقة محكمة فى موضع غير ظاهر أسفل السيارة ، ومدّ أسلاكها إلى مفتاح التشغيل على نحو غير ظاهر . فلما نزل منها ، أوصل الأسلاك بمفتاح التشغيل .

ولما دخل على أمه ، طلب منها أن تنهض على الفور ، ومعها أخته

الشقيقة « كارول » وأخوه بالتبنى « سكوت » ليصحبهم فى نزهة إلى المدينة . ولما لم يجد لديهم حماسا للفكرة مقترحين البقاء حول حمام السباحة بالبيت ، أبدى غضبه وأصر على تنفيذ رأيه .

اتجه الجميع نحو السيارة ، ورتّب هو لهم مواقع الجلوس : « سكوت » خلف عجلة القيادة ، وأمه بجواره ، وخلفها تجلس « كارول » ثم يجلس هو بجوارها . وعلى هذا النحو جلس ثلاثتهم . وقبل أن يصعد هو ليأخذ مكانه ، تراجع فجأة كأنه نسى شيئا ، واعتذر مسرعا نحو البيت لإحضاره .. وما إن دلف نحو الداخل ، إذ دوى صوت انفجار مفزع . ففى اللحظة التى أدار فيها « سكوت » مفتاح التشغيل لحين عودة « ستيفين » ، انفجرت العبوة الناسفة ، وفى الحال مات « سكوت » وماتت « مارجريت » .. الأم ! أما « كارول » فقد نجت بأعجوبة .. إذ كان باب السيارة بجوارها مازال مفتوحا ، فدفعها الانفجار بعيدا لتسقط على الأرض ، وقد أصيب جسمها كله بجروح شوّهته !

وأمام رجال الشرطة الذين قدموا مسرعين على صوت الانفجار ، أظهر « ستيفين » الجَزَع والهلع ، وانخرط فى البكاء والنحيب ، وكذلك فعل أثناء تشييع الجنازة .. أو الجنازتين معا . لكنه لم يستح أن يطلب من جده « هارى هيتشكوك » الذى حضر مراسم الدفن وقد بلغ التاسعة والثمانين ، مبلغ ٢٠ ألف دولار يحتاج إليها فى الحال !

بعد شهرين من وقوع الحادث ألقت الشرطة القبض على « ستيفين » بتهمة القتل العمد المزدوج ، لأمه وأخيه ، والشروع فى قتل أخته . وأثناء المحاكمة ، طلب الجد « هارى » أن يسجل محاميه فى وصيته

حرمان «ستيفين» من ميراثه ، كما طلب من محاميه أن يرجو المحكمة عدم الإفراج المؤقت عن حفيده لحين صدور الحكم ، خشية على حياته هو : «فإن ابنا استطاع أن يقتل أمه ، وأخاه ، وقصد قتل أخته ، لا يردعه رادع عن قتل جده الكهل الضعيف» ! ولم يكن خافيا على الجد ، أن حفيده يعلم تماما كم يساوى موته ــ أى الجد ــ من ملايين الدولارات !

الشـــيطان .. طبيبــاً !!

هذا الرجل ، فاق كل النساء والرجال فى عالم الجريمة .. ليس فى عدد من أزهق أرواحهم بيديه وحسب ، بل وفى «بشاعة» الأسلوب ، وخبث الدهاء ، وصرامة الأداء ، و «برودة» الأعصاب حتى آخر لحظة من عمره !

وقصته الحقيقية بأحداثها وملابساتها ووثائقها ، تتفوق كثيرا على أشهر أفلام السينما ومسلسلات التليفزيون ، وتتجاوزها فى الإثارة والحبكة والتأليف والإخراج ! وحتى فى التمثيل .. فقد لعب أدوارا ، وأدى مشاهد ، متنوعة ومتقابلة أيضا .. وكان وحده «البطل» ، والمؤلف ، والسيناريست ، والمخرج ، وكاتب الحوار ! وبالمناسبة : لم تتناول قصته السينما العالمية حتى الآن ..!

وكما بدأت أرضنا والشمس ومجموعتها تتكون من أبخرة عنيفة ودخان .. بدأت قصة هذا الرجل د . «مارسل بِتْيو» الطبيب ــ أو كابتن فاليرى كما سنرى ــ مع الأبخرة ، والعنف ، والدخان ..

كان يحلو له وهو طفل صغير أن يعذب قطته التى تلقاها هدية فى عيد ميلاده الخامس . يتوارى فى فناء البيت ، ويجمع أوراقا وأعشاباً ، يشعل فيها النار ، فتثير دخانا ، ثم يقذف فيها القطة المسكينة ! أو يأتى بإناء ، يسكب فيه ماء يغلى ، يتصاعد منه البخار ، ثم يلقى فيه القطة المعذبة .. إلى أن استراحت بالموت ! وبدا عليه هو الارتياح !!

تذكر مربيته «هزييت» ، أنه وهو فى سن الثانية ، كان يحلو له أن يخزها بالدبابيس حتى تدمى .. ويضحك سعيدا برؤية الدم !

في المدرسة الابتدائية ، كان بين الحين والحين ، يختلس مسدس والده وفى ضجيج الفسحة ، يتسلل إلى الفصل مع بعض أصدقائه ، ويغلق الباب ، ويطلق بضع رصاصات نحو السقف ! وفُصل أكثر من مرة ، وضُرب ، وعُوقب . فكان خاله « جاستون » مدرس العلوم بالمدرسة يتشفع له .

فى الشارع الذى تقيم فيه أسرته ، وكان قد كبر قليلا واستطال ، كان يتسلل إلى صناديق البريد فى مداخل البيوت ، وبعصاً رفيعة طرفها معدنى مدبب ، يسرق الخطابات ويأخذ ما بها من نقود . وبلغت به الجرأة أنه كان يصرف من مكتب البريد الحوالات التى كان يسرقها من الخطابات . (للعلم : فى معظم دول الغرب يسمح للأولاد الصغار بالتعامل مع البنوك ومكاتب توفير البريد بشروط ميسرة حتى يشبوا على حب الادخار ، والأهم من ذلك : اكتساب عادة الارتباط المستسلم للبنوك أو المصارف) . إلى أن ضُبط ، وقُدم للمحاكمة ، وطُرد من المدرسة الثانوية (الليسيه) .

ومضت سنوات .. توارى فيها اسم « مارسيل بِتْيو » ، إلى أن ظهر فجأة عام ١٩٢١ ، يوم حصوله — وياللعجب ! — على شهادة الدكتوراه فى الطب بدرجة جيد جدا !! يومها قال كلمة تصلح أن تصدر عن فيلسوف أو حكيم خبير بهذا العصر ، قال : « فى الحياة .. يجب أن تمتلك أحد أمرين : إما ثروة أو موقعا مرموقا ، وأحدهما يجلب لك الآخر . يجب أن تملك القدرة وتجاهد حتى تسيطر على أولئك الذين قهروك ، فإما أن تسحقهم أو أن تفرض عليهم إرادتك » !

ويشتغل طبيبا فى مدينة صغيرة شمال شرق فرنسا ، ويشتهر فى المدينة بكفاءته الطبية ، وباهتمامه وحبه للناس . لم يتزوج بعد . لكنه يلاطف ممرضته . ثم يدعوها للاقامة معه فى بيته فتقيم . ثم تحمل . ثم تختفى .. إلى الأبد ! ولما سئل عنها قال فى بساطة شديدة وثقة :

ــ وما الغرابة فى ذلك ؟ إن الشباب اليوم يتصرفون على هواهم ، يتنقلون ويغيرون أماكنهم وأعمالهم فجأة ، ولا أدرى شيئا عنها . ولما كان معروفا بين الناس ومشهودا له بالكفاءة وحسن المعاملة ، فقد صدقوه ، وسكتوا . لكنه أسرع بالزواج ، عام ١٩٢٧ . بعد ثلاث سنوات وجدت بائعة ألبان ميسورة الحال مذبوحة فى بيتها ومشطورة نصفين . واختفت ثروتها التى كانت تخفيها فى البيت : ٢٨٠ ألف فرنك . كان « بتيو » يتردد عليها لمعالجتها . لم يتطرق الشك نحوه من أحد على الإطلاق . إلا أن مريضه « فراسكو » العجوز ، ألمح سرا أن فى رأسه فكرة تدور .. وهذا خطأ ، بل خطر .. لايجب أن تُترك الأفكار لتدور فى الرءوس ! حقنة عاجلة تريح « فراسكو » من آلام الروماتيزم إلى الأبد وتريح دكتور « بتيو » من دوران الأفكار فى رأس العجوز !

وبدأ « دخان » من الشك يتطاير فى الهواء . لابد من طرده من الهواء بسرعة . أفضل وسيلة : سُحب السياسة ، فهى كفيلة بامتصاص أدخنة كثيرة ! يقتحم الطبيب مجال السياسة بضجيج وعجيج ، ويخطب فى حماسة أبطال المسرح ، مخاطباً جمهور السذج :

ــ إخوانى ورفاق .. إن الشرفاء يشوّهون . وأنا أعرف ، وأنتم تعلمون ، أن جريمتى الوحيدة هى حبى للشعب ، لكم » . وترتفع الصيحات : برافو ... ! ويصبح الطبيب عمدة المدينة !

انقشع الدخان .. إلى حين . فلتتجه السُّحب إلى العاصمة : باريس . فهناك المجال أرحب .. فى السياسة وغير السياسة ، والتغيير مطلوب ، والبعد عن «الشر» أسلم !

وباريس فى ذلك الوقت مدينة مضطربة . فهى فى قبضة الاحتلال النازى . فكان من السهل أن ينتقل ، للإقامة أو العمل ، من مكان إلى مكان . وتحت مظلة العيادات الحكومية الهشة النظام فى إدارة الحكومة الموالية للمحتل ، استطاع أن يجد أكثر من وسيلة لجمع المال ، بطرق مشروعة وغير مشروعة . وافتتح معملا طبيا لم يبخل عليه بدعاية مكثفة بهلوانية : «تعال إلينا ، وسوف نهتم بعلاجك وفق أحدث الأساليب المبتكرة : أشعة X ، أشعة ى . ف ، أشعة يو — إر ، تشخيص المرض فورا بالأشعة السطحية والنفاذة . نحن نعالجك بمواد حديثة مشعة لا تضر ولكن تقضى على مسببات المرض . العلاج بالأشعة الحرارية ، والأشعة القصيرة .. الخ» .

أواخر عام ١٩٤١ . يستجيب للدعاية «جو شينوف» ، عجوز من أصل بولندى ، تاجر فراء ، ومقيم فى فرنسا منذ زمن بعيد . واستمر يتابع العلاج . لكن صحته لا تتقدم ، بل تتراجع . يصاب باليأس . يزداد اضطرابا نفسيا وقتامة مع زيادة أساليب المحتل النازى فى مصادرة الأموال ، والاعتقال ، وتقييد حرية السفر ومغادرة البلاد . ما العمل ؟ .. لا أمل ! لئن كان «بتيو» قد فشل فى العلاج ، فقد نجح فى استدراج «جوشينوف» إلى الكلام . والكلام عند بعض المكروبين تسرية عن النفس وعزاء :

— ياللمصيبة ! .. كان يجب أن أرحل .. ليتنى هربت إلى أمريكا ! ولكن للأسف .. الوقت فات .

وفى الحال ، تفجرت فى رأس «بِتْيو» فكرة ، ولمعت ، وشعشعت . وهتف فى أعماقه : وجدتها !! لكنه لم يفصح عنها . واستمر يستمع فى صمت . إلى أن سكت العجوز البائس . يطرح الطبيب رأسه إلى الخلف ، وأسنده إلى حافة المقعد ، وأغمض عينيه كأنه يفكر بعمق ، ثم اعتدل يقول لتاجر الفراء ، وعيناه مركزتان بشدة فى عينى العجوز ، وبصوت خفيض لكنه يوحى بكل الجد :

ــ لا . ليس الوقت متأخرا ، ولم يَفُت بعد . إن الأمر ممكن .

ــ تقول ممكن ؟ قالها العجوز بلهفة الغريق .

ــ هناك منظمة .....

فى هذا الوقت ، كان الناس على استعداد لتصديق كل شيىء ، والتعلق بأى شيء .. بقشّة ، بخيوط العنكبوت .. كانوا غرقى .. ضائعين .. تائهين . وكانت كلمات مثل : منظمة ، تنظيم ، تجمُّع ، كان لها وقع السحر . قال العجوز مقاطعا :

ــ هل أستطيع أن أحمل معى أموالى ؟

ــ يجب أن تدفع هنا ٢٥ ألف فرنك . وأنصحك أن تحول أموالك إلى ماس أو مجوهرات صغيرة الحجم ثمينة القيمة ليسهل عليك حملها فى خفاء . فالأموال عرضة للمساءلة فى أى مكان .

ــ موافق .

ــ ولكن بشرط : الصمت المطلق ، ولا تثق فى أى إنسان . ولا تتحدث بكلمة واحدة عن علاقاتنا معا . وإلا تضيع حياتك ، وحياتى ، وكل أفراد المنظمة .

أقسم المسكين «جوشينوف» أيْمانا مغلظة أنه لن ينطق ببنت شَفَة ، وأسرع يشترى قطعا من الماس بمبلغ مليون فرنك . وهو مبلغ

هائل فى ذلك الوقت . وبعد أن أعد نفسه ، وجهز حقيبة واحدة للسفر تضم أثمن مقتنياته وملابسه ــ تبعا للتعليمات ــ واتجه فى موعد محدد من قبل إلى ميدان «الكونكورد» فى باريس (أكبر ميادينها وفيه المسلة المصرية المشهورة) . هناك التقى بالحلاق «فوربيه» ، مساعد دكتور «بتيو» فى شركة وهمية للسياحة والسفر اختار لها اسم : «الثعلب الطائر» وسلمه على الفور ٢٠٠ ألف فرنك ، واتجها فى سيارة سياحية خاصة «بالشركة» على أول الطريق إلى .. أمريكا . فى الطريق توقفا أمام البيت رقم ٢١ شارع «لوزيير» . بيت قديم كبير المساحة .

ــ لماذا ياسيدى الحلاق ؟

ــ سننتظر هنا قليلا حتى نصحب معنا مهاجرين آخرين وتسافرون فى صحبة معا .

ويتكرر نفس «السيناريو» على مدار أربع سنوات . فى ١١ مارس ١٩٤٤ ، أسرع رجال الإطفاء لإخماد حريق اشتعل فى نفس هذا البيت . لم يجدوا فيه أحدا . وعندما اتجهوا نحو مصدر الحريق فى بدروم فسيح فى الطابق تحت الأرض ، اقترب ضابط الإطفاء من فرن حديدى كبير كان مشتعلا ومنه بدأ الحريق . وبسبب شدة النيران ، انفصل باب الفرن ، وأطلّت منه كومة من الأطراف الآدمية والجماجم المتفحمة ! واستولى الرعب على الجميع .. وتراجعوا قليلا .. وأدار الضابط بصره بسرعة يستطلع المكان ، فرأى كومة كبيرة من الجير الحى تبْرز منها بقايا جثة آدمية ، وأطراف وأرجل وجماجم وكلها مشوهة متفحمة .

فى تلك اللحظة حضر رجل يركب دراجة ، توجه مباشرة نحو

الضابط ورجال الإطفاء ، وهو يخطو خطوات متئدة ثابتة وقال بكبرياء واضحة :

ـــ أنا شقيق صاحب هذا البيت ، وهو قادم فى الحال . ثم وجّه كلامه إلى الضابط مع تركيز نظره نحو عينيه :

ـــ أعتقد أنكم فرنسيون وطنيون مخلصون ، وتفهمون جيدا ... ثم خرج يقفز فوق دراجته ، واختفى عن الأنظار . وفهم الجميع أن هذا الرجل لابد أن يكون من أعضاء المقاومة الوطنية ضد الجيش النازى المحتل .

عندما حضر بعد فترة وجيزة فريق البحث الجنائى ، تفحص المفتش « ماسو » الجزء الأمامى من المبنى . جناح مستقل فيه حجرة مكتب ، تجاورها حجرة مكتبة ، ثم حجرة أخرى غريبة الشكل .. ليس بها نوافذ ، وبالباب مِرْقب (نظارة سحرية) يشاهد من بالخارج ما بها فى الداخل ، وبابها يُفتح نحو الخارج على غير العادة . وفى طرف الحجرة الداخلى باب آخر . على ماذا يفتح ؟ على لا شىء ! مجرد باب وهمى .

خرج المفتش « ماسو » يسأل الجيران :

ـــ من صاحب هذا البيت ؟

ـــ يملكه الدكتور بتيو ياسيادة المفتش .

وعلى الفور أدرك المفتش « ماسو » أن الأقدار وضعت يده على قضية جنائية خطيرة ، لا صلة لها بالمقاومة الوطنية على الإطلاق . كما أدرك أن الرجل الذى حضر راكبا دراجة ـــ وأخبره به ضابط الاطفاء ـــ هو بالتأكيد : مارسل بتيو السفاح الرهيب ، وقد أفلح بتأثير إيحاءاته ، أن يفلت من أيدى رجال الإطفاء لحسن نواياهم . كيف أدرك ذلك ؟

إن المفتش « ماسو » يعرف دكتور « بتيو » جيدا . فقد سبق ــ منذ سنوات فى باريس ــ أن حامت حوله الشبهات باشتراكه فى ترويج المخدرات ، وفى إجراء عمليات الإجهاض ، وكانت عقوبة الإجهاض أشد من عقوبات بيع المخدرات لحرص المجتمع على رعاية الأطفال وعلى زيادة الإنجاب ، ولموقف الكنيسة المتشدد ضد الإجهاض . واستطاعت الشرطة وقتها أن تضيق الخناق على « بتيو » بمساعدة اثنين من زبائنه الذين كان يمدهم بالكوكايين . ولكن فجأة ، اختفى الرجلان .. إلى الأبد !

وفى نفس الفترة ، أسرعت السيدة « دينيس » إلى عيادة الطبيب تخبره وهى ترتجف أن الشرطة تحقق معها بشأن عملية الإجهاض التى أجراها لها سراً . وقالت : « أرجوك . أتوسل إليك أن تساعدنى فى نفى هذا الاتهام .. أعطنى شهادة أننى كنت أعالج من مرض .. » وقاطعها « بتيو » : « نعم .. نعم .. بالتأكيد .. قابلينى الليلة فى هذا العنوان لتأخذى شهادة موثقة » .. وذهبت السيدة إلى العنوان الذى ذكره لها مشافهة ، وبمفردها كما أوصاها .. ٢١ شارع « لوزيير » .. دخلت .. ولم تخرج !

لم تستطع الشرطة وقتها أن تجمع أدلة كافية تدين الطبيب ، فلما قدم للمحاكمة ، حكم عليه بغرامة ١٠ آلاف فرنك وبالسجن لمدة عام مع وقف التنفيذ . كان ذلك منذ سنوات قلائل قبل حريق البيت .

وقد يرد على الذهن سؤال : كيف يختفى كل هؤلاء الناس ، ولا يسأل عنهم أحد أو يجدّ فى البحث عنهم أحد ؟ وهو سؤال جيد

ومنطقى حين يُطرح اليوم . أما فى ذلك الوقت ، أثناء فترة الحرب وفى وجود الاحتلال الألمانى الصارم المذل للفرنسيين ، فقد كان شائعا ومألوفا بين الناس ، أنهم يتنقلون للإقامة من مدينة إلى مدينة ، ومن حى إلى آخر ، سرا أو علانية ، أو يحاولون الهرب والهجرة كل بأسلوبه وبوسائله ، فضلا عن عمليات الاعتقال التى تتم عن طريق النازى أو رجال المقاومة الفرنسية . وفى ذلك الوقت العصيب ، كان كل فرد تقريبا مشغولا بهمومه ومشاكله .

إن هذا ليس بالمنظر الجميل

أغسطس ١٩٤٤ .. باريس فى شبه ثورة عارمة ضد الاحتلال النازى ومخابراته «الجستابو» وأعوانهما من الخونة الفرنسيين (الطابور الخامس) .. تجمعات هادرة ثائرة من المواطنين تقف على النواصى وتقاطعات الطرق تهتف ضد الاحتلال ، والقهر ، والخونة .. واحد من وسط الجموع ، ذو لحية متميزة سوداء ، وشارب كثيف ، يصرخ بكل الحماس : «إلى المعركة .. إلى تطهير فرنسا من المجرمين الخونة» .. هو مواطن عادى بين المواطنين العاديين المتعطشين إلى الحرية وزوال الاحتلال البغيض ، هكذا يبدو .. لكنه فى نظر رجال المقاومة الفرنسية الأبطال، وهم كثيرون مُندسُّون بين الجموع ، هو مجاهد جرىء انضم إليهم منذ سنوات ، وأبدى نشاطا ممتازا فى علاج الجرحى والمصابين ، وفى تعقب الخونة المتصلين بالألمان ، فاستحق عن جدارة رتبة «كابتن» بالمقاومة وميدالية تقديرا لوطنيته ، وعين مفتشا بالأمن الحربى . إنه الطبيب الكابتن «هنرى فاليرى» .. وأين يقيم ؟ ليس له مكان إقامة بالتحديد .. مثل كل رجال المقاومة ذوى القيمة والأهمية ، حماية لهم .. فهو دائم التنقل من بيت إلى بيت ، بترتيب من فرق المقاومة ، وكل أسرة تستضيفه ليلة أو بضع ليال ، تشعر بالاعتزاز والفخر ، أنها تستقبل وتأوى بطلا من أبطال المقاومة الشرفاء المخلصين .

وفى ١٩ سبتمبر صدرت صحيفة «المقاومة» — والتى كانت تُطبع سرا وتوزَّع سرا أيضا فى كل أنحاء فرنسا .. ونُشر فى عدد ذلك اليوم مقال قصير تحت عنوان : «بتيو .. هل هو من جنود الرايخ (أى

الألمان) ؟» ... وفى المقال ، رجّح الكاتب أن « بتيو » يقيم مختبئا فى مرسيليا . ولم يكن هذا صحيحا . أما الصحيح ، فهو أنه كان بالفعل يعمل لحساب الجستابو الألمانى فى نفس الوقت الذى انضم فيه إلى المقاومة الوطنية الفرنسية . فقد أراد بذكائه الحاد — والخطر معا — أن يُخفى جرائمه الشخصية ، وأن يحتاط للظروف — لكل الظروف — فيُكسب تلك الجرائم والأعمال رداء وطنيا بطوليا (بالنسبة للمقاومة) أو رداء بطوليا مخلصا بالنسبة للألمان .. والموتى لا يتكلمون !

ومن مختبئه بين المقاومة أمسك « بتيو » بالقلم ، وأخذ يكتب ردا على مقال الصحيفة استغرق عشر صفحات دافع فيه عن هذا الادعاء الكاذب ، وأن المتهم برىء حتى تثبت إدانته ، وكيف يُدان الشرفاء والمجاهدون الأبرياء جزافا دون دليل . لم يذكر بالطبع عنوانه . لكن الشرطة التى كانت تترصده أدركت أنه مازال فى باريس ، مستترا تحت اسم جديد ، ومتواريا بين صفوف المقاومة . واستطاعت الشرطة — بالتعاون مع المقاومة — أن تتأكد من حقيقة شخصية الكابتن « فاليرى » ، وأنه هو نفسه دكتور « بتيو » .

فى ٣١ أكتوبر ١٩٤٤ ، أحاط أربعة رجال مسلحين بالكابتن ، وصرح فيه أحدهم : « لاتتحرك .. يابتيو ! » وفى الحال وضع القيد الحديدى فى يده . لقد وقع فى الفخ .. وهو المقال الذى نشر بصحيفة المقاومة !

وفى المحكمة وجه إليه القاضى الاتهام :

— أنت متهم بقتل ٢٧ شخصا .

— لا ياسيدى القاضى .. هذا خطأ .. إنهم ثلاثة وستون .. قتلتهم جميعا بيدى لأنهم من الخونة والضباط الألمان .

وظل طوال المحاكمة مستندا بإصرار إلى هذا الزعم ، ومؤكدا أنه من أبطال المقاومة الوطنية ، وتحدث عن علاقاته الوثيقة بشخصيات بارزة من قيادات المقاومة (كل الأسماء التى ذكرها كانت قد رحلت عن الدنيا .. فمن يستطيع أن ينفى ذلك أو يسأل الموتى ؟) .

ــ ولكن .. تلك الجثث التى وُجدت فى بيتك بشارع «ليزير» ؟

ــ لا شأن لى بها ياسيدى القاضى . لقد وضعها الجستابو دون علمى بها ، فقد اعتقلونى بضعة أيام ، واستجوبونى وعذبونى ليحصلوا منى على معلومات عن المقاومة ، أفرجوا عنى ، إن الألمان هم الذين فعلوا ذلك .

ــ وتلك الحقائب .. حقائب السفر العديدة التى وُجدت فى البيت ؟

ــ إنها غنائم حرب ياسيدى .. من الألمان وأعوانهم الخونة . وما أكثر الخونة التى تعاونوا مع الألمان . وكانوا يستحقون القتل أو السلب . إن الأعمال الوطنية تُشوَّه ياسيدى القاضى وتُلطخ بالافتراءات .

استغرقت المحاكمة ثلاثة أسابيع ابتداء من ١٨ مارس ١٩٤٦ . حضرها جمهور كبير ، وتابعها فى الصفوف الأولى شخصيات قيادية بارزة ، وحتى نجوم السينما والمسرح والصحافة والمجتمع . واكتشف الجميع قدرة هذا الطبيب السفاح ، الفذة والمبهرة على الحوار ، والدفاع ، والتبرير ، ودفع الاتهام ، والمراوغة ، وسرعة البديهة والانتقال السريع من الحماس المفرط إلى التعليقات اللاذعة أو الساخرة المضحكة .. دون إرهاق ، ولا ارتباك ولا أدنى تردد فى التعبير .. مع كل حالة من الحالات السبع والعشرين .. أى الضحايا الذين عُثر عليهم ، ومعه محاميته القديرة «فلوريو» الذى كتب عنها معلق قانونى : «لو كانت تلك الجرائم ارتكبها سبعة وعشرون قاتلا مختلفا ، لاستطاعت «فلوريو» أن تبرئهم واحدا واحدا على التوالى !» .

واستغرقت مرافعة المحامية ست ساعات ونصف ساعة متصلة! وانتهت بتصفيق شديد من الجمهور .. وكان السؤال الأخير من القاضى للمتهم :

ــ أيها المتهم .. هل لديك شيء تضيفه بالنسبة لدفاعك ؟

فسكت «بتيو» لحظة ثم ركز نظراته نحو القاضى ونحو المحلفين ثم قال بكل الثبات والجد :

ــ إنكم فرنسيون . لقد خلّصتكم من الخونة . وقد جاء الدور عليكم ، ولابد أنكم تعرفون جيدا ما يجب أن تفعلوه» .

ولابد أن نذكر قبل مغادرة المحاكمة ، أن المبالغ التى حصل عليها «بتيو» من ضحاياه ــ وفق تقديرات التحقيق والمحكمة ــ بلغت مائتى (٢٠٠) مليون فرنك .. مبلغ ضخم خاصة بتقدير ذاك الوقت . وظل السؤال بلا إجابة حتى اليوم : أين ذهبت تلك الثروة الهائلة ؟

٢٥ مايو ١٩٤٦ .. فى الساعة الخامسة إلا الربع صباحا ، صحا السجين «بتيو» المحكوم عليه بالاعدام من نومه فجأة ليجد أمامه محاميته «فلوريو» فقال على الفور : «لقد حانت الساعة» ! وجلس يكتب خطابا طويلا إلى زوجته وابنه . ثم سيق إلى المقصلة . فمشى بخطوات ثابتة . ثم عانق محاميته ، واستدار يخاطب الواقفين ويقول :

ــ أيها السادة .. نصيحة أخيرة : لا تنظروا . فإن هذا ليس بالمنظر الجميل !

لسنا قضاه .. ولكن

عندما يقع حادث ، أو ترتكب جريمة ، أو مجرد واقعة ـ ولو مفتعلة ـ تتناولها الصحف ووسائل الاعلام ، لابد وان تصبح حديث الناس .. والحسنة الوحيدة من وراء النشر أو التنوية ، هي تحذير الناس وتبصرتهم ، ليتخذوا الحيطة إن هم أهملوا أو قصّروا ، وليتذكروا الهيبة إن هم غفلوا عن قدرة الشرطة وسلطان القانون .

لكن الناس عادة ـ للأسف ـ يأخذون لأنفسهم مكان القضاة ، ويبادرون ـ دون حُجة أو حق ـ إلى إصدار الأحكام بغير إحكام . و هذا هو الشأن في كثير من الأمور : ندين هذا ونجرّم تلك ، نجرِّح هذا ونشوّه سمعة تلك ، ونتّبع الهوى ونستبق الظن ، والقرآن يحذّر : ﴿ **اجْتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم** ﴾ الحجرات ١٢ ـ ﴿ **وما يتّبع أكثرهم إلا ظنا ، إن الظن لايُغني من الحق شيئاً** ﴾ يونس ٣٦ . بل إن المولى ـ عز وجل ـ يقرر أن اتباع الهوى ضرب من الظلم : ﴿ **بل اتّبع الذين ظلموا أهواءهم بغير عِلْم** ﴾ . الروم ٢٩ .

والناس عادة يأخذون كل مايُنشر أو يُشاع أو يُقال وكأنه حقائق ثابتة موثقة . وفي تناقلها يضيفون إليها أو يحذفون منها ، بسبب النسيان أو التخيل أو الغرض أو المرض .. والخبر قد يتلون ـ عن قصد ـ ويتحور على نحو يريده ناشروه ..

وللمؤمن ـ وللمؤمنة ـ إزاء الأحاديث والأقاويل موقف واضح ومحدد ومهذب ، بنص القرآن الكريم ، في سورة النور ، حتى يعف اللسان ويصفو الوجدان .

فالمؤمن ـ وكذلك المؤمنة ـ يعرف تماما أن : ﴿ **لكل امْرِئٍ منهم مااكتسب من الإثم** ﴾ . فالمخطيء أو الجاني أمره موكول إلى الله وإلى سلطان الله في الأرض : ولى الأمر وقضاة العدل .

لكن القضاء كثيرا ما يطول أمده ، ويتسع مداه ، والقضاة غالبا مُثْقَلون مُرْهَقون ، والمحامون بارعون حين يحاورون ويداورون .. ولو حُسِم الشر ، وقُضِى الأمر ، على نحو سريع بلا ضجر ، تمكن سلطان القانون واستقر ، وهاب المسيءُ بطشه فازْدَجَر ..

والمؤمن ـــ وكذلك المؤمنة ـ يغلِّب دائما ظن الخير ، ويرد الأمور المشتبهة أو المبهمة إلى أصحابها حتى يستيقن ويستبين . لأن الانسياق وراء ظن السوء وفكر السوء والتأويل السيء ، يُفضى إلى عمل سيء أو سلوك قد يضر ويسيء . ولاحرج عليه ـ أو عليها ـ أن يظن فى نفسه هو ـ أو هى ـ الخير حين يتداعى من حوله ـ أو حولها ـ الشر ويتفاسد الأمر ، فهذا على الأقل مدعاة إلى أن يُلْزِم نفسه ـ أو تُلزم نفسها ـ بالميل نحو الخير والأخيار ، وبالبعد عن الشر والأشرار ، وفى السورة الكريمة : ﴿ **لَوْلا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمناتُ بأنفسهم خيراً** ﴾ وحينئذ تتنزل رحمات الله ، ويتتابع الفضل من الله : ﴿ **ولَوْلا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسَّكم فيما أَفَضْتُم فيه عذاب عظيم . إذْ تَلَقَّوْنَهُ بألسنتِكم وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم وتَحْسَبُونَه هَيِّنا وهو عند الله عظيم . ولولا إذ سَمِعتموهُ قُلْتم مايكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك ، هذا بُهْتان عظيم ، يَعظِكُم اللهُ أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين * ويُبَيِّن الله لكم الآيات والله عليم حكيم** ﴾ .

والمؤمن ـ وكذلك المؤمنة ـ وكل إنسان عاقل حكيم رشيد ، يهتم بالنظر إلى « جوهر » الموضوع أكثر من تشاغله بما يطفو على السطح .. إن بصيرته نفاذة إلى العمق ، فلا يبدد طاقة ذهنه بالوقوف عند العوارض والقشور .. وهنا يعود إليه السؤال القديم المتجدد على الدوام : لماذا ؟

لماذا قتلت الزوجة هنا أو هناك ؟.. فى القاهرة ، وأسيوط والسويس ، والإسكندرية ، والفيوم ، وأسوان .. وربما مالم يُنشر ـ وهذا أفضل ـ أدْهَى وأمرّ .

إن التفكير فى القتل - خاصة داخل الأسرة - لايأتى فجأة ، ولايحدث بلا مقدمات طويلة وصراع مع النفس قاسٍ وعسير .. ومن هنا يستطيع المحققون ورجال الشرطة الإمساك بخيط أو مجموعة خيوط من الأحداث أو الأشياء أو المواقف السابقة أو العلاقات تفضى بهم فى النهاية - عاجلا أو آجلا - إلى الجانى أو مرتكب الجريمة . ويجدون صعوبة بالغة فى كشف الحقائق عندما يحدث الجُرم - القتل مثلا - فجأة ودون مقدمات . فعندما تتصادم سيارتان مسرعتان مثلا فى طريق سريع ، وتطيح إحداهما بالأخرى وتقذف بها فى نهر أو بحيرة ، ثم تولى هاربة دون أن يراها أحد أو تخلّف أثرا وراءها .. أو عندما ينزل سائق هذه وسائق تلك ، وكل منهما بمفرده فى السيارة ، ويتصايحان ويتشابكان ثم يحسم أحدهما الموقف سريعا بطعنة سكين أو طلقة مسدس ، ويفر هاربا بسيارته قبل أن يلحظه أحد .. هنا تكون الجريمة غامضة محيِّرة .

لكن .. عندما تقتل الزوجة .. أو عندما يطعن الزوج .. فتلك نهاية - حقا مؤلمة مفزعة - سبقتها مراحل وبدايات ..

هناك ثلاثة عوامل مشتركة - على الأقل - فى تلك الحوادث المتتابعة ، والتى لن تتوقف ، فقد ذكرت إحدى الصحف « انهالت المحادثات التليفونية على قسم الحوادث بالجريدة تعكس رأى زوجات مجهولات فى أزواجهن وهن يبدين تعاطفاً تاما مع هؤلاء القاتلات ..» !

العامل الأول هو : قسوة الزوج أو « سوء » معاملته للزوجة بعد فترة ممتدة من الزواج .

والعامل الثانى : فقدان « الحب » أو تحوله إلى طرف ثالث أو رابع .

والعامل الثالث : الضغوط المادية ، ومايرتبط بها من طمع فى أموال الزوج أو الزوجة ، ورغبات وتطلعات أحدهما حين يرفض الآخر تحقيقها - وهو قادر - فى استعلاء وصَلَف[1] .

---

(١) الصلف (بفتح الصاد واللام) : خشونة فى المعاملة مع كبرياء زائف . ويقال : صَلِفت المرأة إذا أبغضها زوجها وأهمل شأنها .

وتلتقى تلك العوامل الثلاثة عند كلمة : « الغضب » فكل إنسان يغضب ولابد أن يغضب إزاء موقف ما ، أو كلمة ما ، أو سلوك ما .. والغضب طاقة ، والطاقة إما أن تُضْبَط فتُختزن ، وإما أن تُطْلق فتتفجر ، أو تُحَوَّل إلى صورة أخرى تُستثمر . وعندما قال النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يوصينا : « **لاتغضب** » ، لم يقصد أن تتبلد مشاعرنا وتتجمد أحاسيسنا فلا نلتفت إلى إساءة ولا نأبه بالمسيئين .. وإنما القصد والتوجيه : أن نغضب حين يلزم حقا وصدقا أن يحرك مشاعرنا الغضب .. أن نغضب لعظائم الأمور وليس لتوافهها .. أن نغضب لله قبل أن نغضب لأنفسنا ولأهوائنا وشهواتنا وأطماعنا .. أن نغضب بقدرٍ لانتجاوزه حتى لانفقد السيطرة على إرادتنا وسلوكنا .. فنُهلك أنفسنا ، وندمر من حولنا ، ونحطم كل ما صنفناه جميلاً فى محيطنا .

إن الطبيعة الجميلة المبهرة ـ التى أبدعها الخالق ـ تغضب وتثور وتزمجر ولكنها سرعان ماتهدأ وتخمُد وتلْطف .. وتلك سنة الحياة والكون فى تغير « المزاج » وتقلُّب « المشاعر » والأحوال .. ماذا يحدث لو استمرت كل البراكين فى الانفجار (البراكين السمراء والحمراء والمتقدة بالأبخرة السامة البيضاء) ؟ ماذا نتوقع لو استمرت العواصف العاتية الهوجاء فلم تهدأ ولم تنقشع ؟ .. وكذلك اهتزازات الأرض .. وهَوَج البحار .. وطفح الانفجارات الشمسية الرهيبة التى تحدث مرة كل أحد عشر عاما بانتظام ... ؟؟

وتلك العوامل الثلاثة تلتقى عند « أزمة » الحب التى تعانى منها المجتمعات والشعوب اليوم ، بعد أن طغى وبغى عليها سلطان المادة ، واسترقاق القوة ، واستخفاف التوجيه ، واسترخاء اللهو ...

فى كتاب « الحب »[1] الذى نقلناه إلى العربية يقول مؤلفه : « .. إن الحب إذا

(١) الحب : تأليف د.ليو بوسكاجليا ـ الناشر : مكتبة التراث الإسلامى بالقاهرة .

مالم يؤسس على الثقة ، والصدق ، واليقين ، والقبول ، لم يكن حبا .. الحب يعنى : أن يَهَب المرء نفسه ، ويستودعها عند من يحب ، آمنا مطمئناً ، دون مَوْثق ولاضمان ، أن يقدِّم كل نفسه راضيا مَرْضيا ، يحدوه الأمل ، بأن الحب يستولد الحب ، فى قلب من يُحب . إن الحب ثمرة من شجرة الإيمان ، وكلما اشتدت الشجرة وكبرت ، نضجت الثمرة وحَلَت ، فإذا ضمرت ، ضمرت . ضمرت .

من سمات الحب الصادق الواثق ، أنه يعطى كل شيء . وإن من طبيعة النفس البشرية أنها تميل نحو الكَرَم ، وتُسَر عند السخاء ، الآخذ والمعطى فى ذلك سواء .. ومن زاد ازاداد .. إذا المرء لم يَتوقع ، ولم يَطْلب ، فإنه لن يُفجع ، ولن يندم .. وما إن يبدأ الحب فى الاستجداء والطلب ، إلا ويتسلل إلى ركابه العذاب والألم .

نحن فى حاجة إلى الانفراد بأنفسنا ، فى خلوة تزيدنا معرفة بأعماق مابداخلنا . نحن فى حاجة إلى بعض الوقت لنستضىء ، لنجمِّع أطراف الخيوط المتناثرة ، لنجعل من الاضطرابات والتشويش ــ الذى يغلفنا ــ معنى ، وببساطة ، لنستجلى الأحلام .. إن الانسان المعاصر أصبح جزءاً من زحام صاخب يغرقه ويحتويه ، حتى إنه ليتحرق شوقاً إلى اقتناص لحظة يخلو فيها وحيداً مع نفسه ..

ماهى آخر مرة نظرت فيها بعناية إلى وجه زوجتك !؟ زوجك ؟ طفلك ؟ إلى وجه أمك؟ وللسبب نفسه: كم مضى من الزمن منذ نَظَرت ــ بعمق ــ إلى وجهك فى المرآة ، إلا حين تحْلق ذقنك أو تصففين شعرك ، ولكن فى لحظة سكينة وسلام مع النفس ، فقط لمجرد النظر ، وتأمل النمو والتغيير ؟!.. » .

صحيح أن البيوت كلها لم تُبن على الحب ، كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه . لكن البيوت ــ الأسرة ــ لاغنى لها عن قواعد وأركان ودعائم ثابتة ومستقرة ودائمة حتى لاتنهار أو تتداعى ، منها : التفاهم ، والفهم ، والاحتمال ، والصبر ، وحسن الجوار والصحبة (داخل البيت) .. ثم الرجولة فى الرعاية وتحمل المسئولية وأداء الواجب ــ عند الزوج ــ « بالمعروف » ،

والأنوثة – عند الزوجة – فى المعاشرة والمعاصرة ولين الجانب والتجمل فى المظهر والحديث ..

والصحابى الجليل عبد الله بن عباس لم يكن « ضعيفا » ولا « متراخياً » حين قال : « والله ، إنى لأتزين لامرأتى كما تتزين لى ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ ولهن مِثْل الذى عليهنَّ بالمعروف ﴾ والإمام الفقيه الشعبى لم يكن ضعيفا ولا مفرطاً حين قال :

كان لى جار من قبيلة كِنْدة لايزال يضرب امرأته ، فقلت لزوجتى :

رأيت رجالاً يَضْرون نساءهم فشُلّت يمينى حين أضْرب زينبا
أأضربها من غير جُرم أتت به إلىّ ، فما عُذرى إذا كنتُ مُذنباً

وماتت. فوالله لقد بغّضت إلىّ الحياة ، وأفسدت علىّ النساء (أى كره النساء كلهن بعدها) فوَدِدْت أنى تبِعتها» .

وقريب من ذلك قول ابن زيدون الأندلسى :

ودَّعَ الصبرَ مُحب ودَّعكْ ذائعٌ من سِره ما استَوْدَعك
يَقْرعُ السنَّ على أن لم يكُنْ زاد فى تلك الخُطَى إذ شَيَّعك
ياأخا البدر سناءً وسنىً حفظ اللهُ زماناً أطْلَعَك
إن يَطُلْ بَعدك ليلى فلَكم بِتُّ أشكو قِصَر الليلِ معك

فهنا يظهر بجلاء ووضوح قيمة النظرة الصائبة والرأى السديد للإمام الحسن ابن على رضى الله عنهما حين جاءه رجل يخبره بأن له ابنة كبرت ، وخُطّابها كثيرون ، فمن يزوجها ؟ قال الإمام :

– زوجْها من تَرضى دينه وأمانته (أى من يخشى الله بحق وليس تظاهراً وادعاء فهو أمين على تحمل المسئولية وأداء الحقوق) . لأنه إن أحبها أكرمها ، وإن غضب أو تحول لم يُهنها .

وفى المقابل :

من حق المرأة أن تختار وأن تفاضل قبل أن « يقع الفأس فى الرأس » كما يُقال !

ومن حق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن يقول : « لا تُكرهوا فتياتكم على الرجل القبيح (قبيح الشكل أو الطباع أو الذوق أو الخلق) فإنهن يُحببن ماتحبون » .

ومن حق مِعْن بن زائدة أن يلبى رغبة امرأة من بنى سهم أتته فى مجلسه ، وكانت معه احسن الناس وجها فقالت :

ـ أصلح الله الأمير .. إن عمىّ زوّجنى من ليس لى بكفء فقال معْن :

ـ علىّ بزوجها . فأحضروه وأدخلوه عليه ، فرآه دميماً فظا من الأجلاف . فقال للرجل :

ـ مَن هذه منك ؟ قال :ـ امرأتى . قال معن : خَلِّ سبيلها . (أى طلِّقها) . ففعل الرجل .

ومن زاوية أخرى ، يقول لنا علماء النفس والاجتماع إن العلاقات الزوجية ـ إذا طال عليها الأمد ـ تمرّ بفترات من البرود أو الفتور ، خاصة إذا كان تيار الحياة الأسرية يمضى حثيثا رتيباً . ومن الحكمة والمرونة أن يحرص كل من الزوجين على تجاوز تلك الفترة بسلام فلا تخلف شِقاقاً ولا نُفوراً . ولعل الدور الذى تؤديه الزوجة فى هذا الوقت العارض ، يفوق مايمكن أن يفعله الزوج . لأنها أكثر صبراً وتحملاً ، أكثر وداعة ورقة ، وفى المقابل ، يتطلب الموقف أن تكون أقل إثارة للخلاف والنزاع ، أقل رغبة فى تمزيق الروابط وتفتيت العلاقات .

إن التغيير فى نمط الحياة اليومية الرتيبة المتكررة يتيح فرصة طيبة لإزاحة بعض الملل ، ولطرد بعض الكآبة أو الضيق ، صحيح أن ضغوط الحياة داخل المدن المزدحمة الصاخبة الكثيرة المطالب والاحتياجات ـ تزيد الإنسان إرهاقاً وقلقاً وتحفزاً إلى الغضب .. وصحيح أن ضغوط العمل اليومى ، وعلاقات الناس فى مجالات . العمل اليومى أصبحت ـ للأسف ـ شحيحة العطاء فى المودة والمرحمة ضامرة النماء مع تراجع الإيثار والصدق ويسر المسالمة . وصحيح أن مسافات التباعد بين الناس، أهلاً وجيراناً ومعارف وخلافاً، تتسع اليوم

وتتسع، مخلفة فراغاً وخواء وشوقاً مفقوداً فى النفس ، وفى البيت ، وفى محيط الأسرة .. كل ذلك أصبح واقعاً مضجراً تنعكس آثاره بالضرورة على الفكر والسلوك والسعى وأحوال النفس وصِلات الناس بعضهم ببعض .. فهل تجد « سفينة » الأسرة ملجأ أو مرفأ ساكناً آمناً تركن إليه، وتحتمى بشاطئه؟!..
ماأشق مهمة ربان السفينة (الزوج) ومساعدة (الزوجة) إذن ؟ !

والأبناء ... لا شك فى أنهم ــ فى جيلهم ــ أسعد حظا من أجيال كثيرة سبقتهم ، إذا ما أحسن إعدادهم لتحمل مسئولياتهم وواجباتهم فى أداء الحقوق . وهنا تأتى مسئوليته برامج التربية والإعلام والتوجيه فى التركيز الجاد على تكوين أنماط للسلوك الاجتماعى التى تبرز الثقة بالنفس من خلال العمل الجماعى ، والتعاون المشترك ، وتقديم البذل على الأخذ ، بتفضيل الإيثار على الأنانية ، والصبر الجميل على التمرد الأحمق .

من مسئولية تلك البرامج والقائمين عليه ــ ومعهم الآباء والأمهات ــ أن تحبِّب إليهم الإيمان وتزيِّنه فكراً وعملاً وأداء وسلوكاً ومذاقاً وذوقاً .. وقدوة . هو الإيمان المحرك لكل معانى الخير والبر والتراحم والإخاء ، والإقبال على الدنيا وعلى الناس ــ وعلى الأسرة أولى وأجدى ــ من هذه الأبواب .

يغفل الأبناء أحياناً ــ وكثير من الآباء ــ أن الحياة رحلة قصيرة لم تأت عبثاً ، فكيف تضيع لهواً ، وصراعاً ، وشقاء ، وعلى غير هدى ؟! إنها رحلة لايمكن للإنسان ــ ولن يستطيع ــ أن يقطعها وحده ، وإلا هلك . لابد له من صحبة ، لابديل عن رفاق الطريق : الأسرة ، الأهل ، الجيران ، الناس .. كل الناس ولاقيمة لوجوده من غير هؤلاء ، لأنه لم يوجد أصلا إلا بهؤلاء ، ولن يحقق ذاته إلا بهم ومن خلالهم . وفى غيبة الإيمان أو ضموره وانغلاقه ، وفى غيبة قيم الخير والبر أو شحوبها وهزالها ، يشعر الأبناء ــ والآباء ــ أنهم فى غابة وإن سكنوا بيوت مدنية عصرية ، وأظلتهم حضارة متنامية . وفى الغابة وحوش ، وأفاعٍ ، وجرذان ، ونمل . ويسود قانون الغابة ، وتطفو روح التوحش .. وتكون الغلبة للأكثر أنياباً وبطشاً وافتراساً وسفكاً للدماء .. ثم

يأتى « الصياد » الماهر فيُهلك ويقتل ويدمر حياة هؤلاء وهؤلاء .. أو يوقع فى « الأسْر » وتحت سيطرته أنواع وأجناس من هؤلاء وهؤلاء .. وقد فعل !

فى غفوة الإيمان وتراخى القيم ، يقيس الناس بعضهم بعضاً ـ وفيهم الأزواج والزوجات والأبناء والأهل والجيران ـ بمقاييس الظاهر لا الباطن : الظاهر الملموس من مال أو عقار أو سلطان وحظوة .. وتتوارى قيمة المرء الباطنية : من علم وخلق وإنسانية حقيقية أصيلة .. وتصبح هذه عملة « سهلة » لاترق إلى مرتبة العملات « الصعبة » الميسورة التداول فى دنيا الأبهة الطاغية والترف الزائف فسرعان ماتسقط المرأة مثلا فى فخ المظهر الكاذب ، والطمع فى الثراء الكاذب ، والانسياق وراء الكلام الحلو الكاذب ، كما حدث من قاتلة زوجها بالأسكندرية .. قالت ـ والعهدة على الراوى وهو الصحف : « بالصدفة قابلته فى الطريق ببورسعيد .. عرض أن يقوم بتوصيلى للقاهرة ، وعرّفنى بأنه مستشار .. كان يقود سيارة فارهة .. وتكررت مقابلاتى معه .. أحببته .. أوهمنى أنه يبادلنى الحب[1] .. وأفهمنى أنه لم يتزوج من قبل وصدّقته (ظهر فى التحقيق أنها الزوجة رقم ١٨ !!) .. كان مظهره يوحى بأنه صادق .. ورغم اعتراض أسرتى عليه إلا أننى تزوجته .. (للتنبيه : نشرت نفس الصحيفة ـ وهى إحدى وسائل الأعلام الموقر ـ بعد بضعة أيام موضوعاً تحت عنوان « ست الحبايب تعذبنى » مضمونه هذا التعبير الذى تكرر فى السياق : « أمى هى مصدر شقائى ») .. وفى الأسبوع الأول أقنعنى ببيع الشقة التى أمتلكها و أفهمنى أنه اشترى بها قطعة أرض وقام ببناء فيلا عليها .. واكتشفت فيما بعد أن الأرض لم يشترها وإنما اغتصبها .. طلب منى أن يحتفظ لديه بكل مجوهراتى ونقودى ووضعها داخل حقيبة أغلقها بالمفتاح وتركها أمامى لأطمئن .. ولكنى اكتشفت فيما بعد أنه سرق المجوهرات والنقود وترك

(١) مرة أخرى تشير إلى كتاب « الحب » .. لمعرفة ماهو الحب حقيقة لا وهما .. وكيف نحب وتنمو فى الحب ونسعد فى الحياة بالحب الصحيح ـ من مطبوعات دار التراث الأسلامى .

الحقيبة خالية فى حراستى .. فى البداية كان حبى له أعمانى .. لم أدرك المصيدة التى وقعت فيها » .

ثم ماذا بعد ..؟

إنها ليست ظاهرة غلابة .. هكذا يقول البعض .. والجريمة بدأت مع الإنسان واستمرت ولسوف تظل .. والزيادة السكانية تضغط بشدة على فكر وأعصاب وأنفاس المجتمع .. والعلاقات الأسرية تعايش عصور الحرية والديمقراطية والانطلاق نحو القمر .. والتطلعات المادية والاندفاع نحو الثراء الحقيقى أو المزيف يدير عقول الأزواج والزوجات والبنين والبنات .. والمشكلات والأزمات الاقتصادية والاجتماعية محلياً وعالمياً أفقدت توازن معظم البشر ، وجرجرت وراءها مصائب المخدرات والإدمان وبيع الأطفال وجرائم الخطف والنصب والاغتصاب والتعصب والاغتيال والأمراض الخطيرة المعلنة والمستترة .. هذا كله يقال .. ويُنشر .. ويذاع صباح مساء .. والناس لاهون تائهون يتابعون المشاهد والألوان .. ومازال العالم يغنى .. ويغنى .. ولايكاد يلتفت إلى أن قيمة معدل الاستهلاك السنوى العالمى من البترول ـ مثلاً ـ هى نفسها قيمة معدل الاستهلاك السنوى العالمى من المخدرات ..!وأن ماتنفقه الدول الغنية والفقيرة سنوياً على الأسلحة وأدوات القتل والتدمير يبلغ ١١٠٠ (ألفا ومائة) مليار دولار أمريكى بالتمام والكمال !! وأن نحو ثلثى سكان العالم اليوم (أى نحو ثلاثة آلاف مليون . إنسان) يعيشون على الكفاف فى الطعام والشراب والمسكن والرداء ..! ثم يقال لك : دعونا من المشكلات الفردية والجرائم البشعة الشخصية . أو يقال لك : إنها مسألة سلوكية وقتية .. أو بتبسيط ساذج : هى أزمة نفوسنا وليست البيئة من حولنا ..

فهل حقا الأمر كذلك ..

فإن لم يكن ..

فهل من مُدَّكر ...؟!!

الفهـــرس

مقدمة الناشر	٣
الزوجات قاتلات	٧
السيدة أم السيد ؟!	١٠
المرأة الصالحة .. أين يجدها المرء ؟	١٩
هل من الضرورى حقاً أن نتزوج ؟	٢٣
أنواع الزواج الرومانى قديماً	٢٥
الرجل والمرأة فى المجتمع الرومانى	٢٨
عندما قال سعد : تفضلى يا هانم !	٢٩
سلوك المرأة العربية	٣١
دستور الأسرة	٣٤
القوامة لا تعنى الطغيان	٣٧
الإسلام والعقوبة	٤٥
منهاج حياة	٤٨
قتيل الهوى وقتيل الشاطور	٥٥
دوافع القتل	٦٠
ثقافة مدنية غلابة !!	٦٢
هدف المرأة فى الحياة	٦٥

الفهـــرس

مساوىء الترف ٦٧
خبرة النساء قليلة ٦٨
من مذكرات « عشماوى » الفرنسى ٧٠
الإنسان هو الإنسان ٧٦
من القاتل ..؟ ٧٧
الشيطان طبيباً !! ٨٥
إن هذا ليس بالمنظر الجميل ٩٤
لسنا قضاة .. ولكن ٩٨

صدر حديثاً :

الحب

أول دراسة عالمية لأهم ظاهرة إنسانية

تعريب

فؤاد شاكر

مكتبة التراث الإسلامي

ت : ٣٩١١٣٩٧ _ ٣٩٢٥٦٧٧ _ فاكس : ٣٩١٣٤٠٦

صدر حديثاً :

مجموعة الفتاوى والرسائل النسائية

سماحة الشيخ

عبد العزيز بن باز

مكتبة التراث الاسلامي

ت : ٣٩١١٣٩٧ ـ ٣٩٢٥٦٧٧ ـ فاكس : ٣٩١٣٤٠٦

صدر حديثاً :

كيف أختار

شريكة حياتي

صفات الزوجة الصالحة والزوج الصالح

عكاشة عبد المنان الطيبي

مكتبة التراث الإسلامي

ت : ٣٩١١٣٩٧ ـ ٣٩٢٥٦٧٧ ـ فاكس : ٣٩١٣٤٠٦

رقم الإيداع : ٧٣٠٥ / ٨٩

طبع بدار نوبار للطباعة

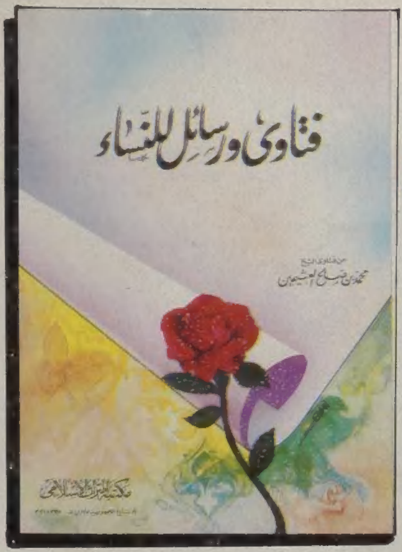

صدر حديثاً

في معنى الحيض وحكمته
في زمن الحيض ومدته
في الطوارىء على الحيض
في أحكام الحيض
أحوال الاستحاضة
حال من تشبه المستحاضة
أحكام الاستحاضة
أحكام النفاس
استعمال مايمنع الحيض أو يجلبه
استعمال ما يمنع الحمل أو يسقطه
عقد النكاح وما يترتب عليه
معنى النكاح لغة وشرعاً
حكمة النكاح

شروط النكاح
صفة المرأة التى ينبغى نكاحها
المحرمات بالنكاح
العدد المباح فى النكاح
فى الآثار المترتبة على النكاح
فى حكم الطلاق وما يراعى فيه
فيما يترتب على الطلاق
احتجاب المرأة عن الرجال الأجانب وتغطية وجهها
تحريم تشبه الرجال بالنساء وتشبه النساء بالرجال
التحذير من توسع النساء فى التبرج

ت : ٣٩١١٣٩٧ _ ١٣

SR 12.00
خزانة التوفير للكتاب المستعمل
الربوة - المهدية - جسر الخليج
51013 175
SR 4 1